

اللذة والألم فى رسالة الغفران

د. أحمد الشتيوى *

عندما بعث ابن القارح (1) برسائله الشهيرة (2) إلى أبى العلاء (3) لم يكتف فيها بالحديث عن بعض قضايا الأدب والدين والفكر، وإنما تعرّض إلى بعض النواحي من سلوكه فى الحياة ، فقد تحدّث عن علاقته بالحسان من النساء فقال :

" لما بلغت عشر الثمانين جاء الجزع والهلع ، فمّم أرتاع وألتاع ، وأخذ إلى الأطماع ، وهو الذى كنت أتمنى ، ويتمنى لى أهلى ؟ أمّن صدوف الغواني عنى ؟ فأنا - والله - عنهن أصدف ، وبهن

* كلية الآداب ، جامعة السلطان قابوس.

(1) هو أبو الحسن ، على بن منصور (351/ 962 - بعد 424/ 1033) أديب حلبى ، خدم أبا على الفارسى ، وكان مؤدّب أبى القاسم المغربى الوزير ، وكانت معيشته من التعليم . قام بالمرّة سنة .

انظر عنه الزركلى: الأعلام (ط7/ دار العلم للملايين بيروت 1986): 5/ 25.
(2) هذه الرسالة هى التى كانت - فى الظاهر - سبباً فى تأليف رسالة الغفران . وقد حقّقها بنت الشاطئ ونشرتها مع رسالة الغفران . انظر تحقيقها لها طبعة دار المعارف (سلسلة ذخائر العرب) القاهرة ط 6/ ص ص 21- 68 (ونلاحظ أننا نكتفى فى بقية الهوامش بلفظة الغفران).

(3) هو أحمد بن عبد الله المعرى (363/ 973 - 449/ 1057) شاعر أديب لغوى ، اعتزل الناس مدة نصف قرن ، فكانت عزله خير عزلة إذ ألف فيها أشهر مؤلفاته مثل : رسالة الغفران ، اللزوميات ، الصائم والشاحج ، الخ . . انظر عنه كحاله : معجم المؤلفين (ط/ دار إحياء التراث) 1/ 290 - 294.

وأدوائهن أعرف " (4)

كما تحدّث عن موقفه من الخمر ، فأشار إلى أنه أعلن توبته منها

فقال :

" عرض علىّ بعض النّاس كأس خمر ، فامتنعت منها " (5)

ثم إنّه قرّر الإقلاع عن شهواته كلها ، وأعلن ذلك فى قوله :

" أنا أستعين بعصمة الله وتوفيقه ، وأجعلهما معينى على دفع

شهواتى " (6)

إنّ هذه التّصريحات الهامة التى أوردها ابن القارح فى رسالته،

وفيهما كشف عن توبته " النصوح " من " مساوى الدنيا " (7) وإغرائها، هى

التي أوحى لأبى العلاء بطمع هذا الرجل : فهو يقدّم نفسه على أنه جدير

بالجنة . وكانت هذه الفكرة هى الدافع إلى العروج به " من الأرض الرّاكدة

إلى السّماء " (8) بمعنى أنّ أبا العلاء نقلنا من مجال التّمنى إلى حيّز الواقع

الفنى ، فلقد كان ابن القارح يتمنى دخول الجنة ويعتقد أنه بها حقيق فإذا

أبو العلاء يتّعم بها عليه ، فيزلفها إليه .

إنّ العالم السماوى الذى نقلنا إليه أبو العلاء لا يخرج فى جوهر

تكوينه ، وفى طبيعة مادته ، عن اللذّة والألم . فهما المجالان الشّعوريان

(4) رسالة ابن القارح ص 45.

(5) نفس (ن) المصدر (م) ص 53.

(6) ن.م.ص 50.

(7) ن.م.ص.

(8) الغفران ص 140 ونلاحظ أنّ السبب الظاهر لتأليف هذه الرسالة هو استجابة أبى العلاء لأمنية ابن

القارح وتطلّعه للجنة . والحقيقة إنّ أبا العلاء أراد معالجة عدة مسائل فكرية وأدبية كانت تشغله ، فاتخذ

من ابن القارح وسيلة لتحقيق ذلك .

الأساسيان المسيطران على ذلك العالم . وهذا ما حدا بنا إلى تتبع هاتين الحركتين بالإفصاح عنهما ، وتوضيح أثرهما في ابن القارح وفي أبي العلاء .

1- اللذة :

إن اللذة هي الإحساس بالراحة وهي انفعال سار يتأتى عن إشباع ميل أو غريزة أو رغبة أو هوى . ولا تكون اللذة لذة إلا إذا وقع الامتلاء منها ، بمعنى أنها تصل إلى الذروة . ثم تتجه نحو تلاشى التوتر ، وتنتهى بالارتخاء . ولا ينشأ هذا الانفعال إلا عن مصدرين اثنين : مصدر هو المدركات الحسية ، ومصدر آخر هو المدركات المعنوية.

1- اللذة الحسية :

هذه اللذة مجالها الحواس أي أنها هي التي تدركها وتكشف عنها ، وتبوح بمداهها ، وتحدد قوتها . ولقد كان للحواس دور نشيط فى رسالة الغفران لأن أبا العلاء عول عليها فى تحديد إطار عالمه السماوى وخصوصاً الجنة . وكانت العين أهم تلك الحواس تأثيراً وأثراً. لقد اهتم أبو العلاء بوصف الجنة اهتماماً بالغاً وحاول أن تكون أقرب ما تكون من الكمال والجمال حتى تتيح لأهلها اللذة القصوى . فهى ذات أشجار وظلال ومياه . وشجرها لم تر عين أعظم منه " كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط ⁽⁹⁾ ليست فى الأعين كذات

(9) من غطت الشجرة وأغطت : بسطت ظلها على ما حولها

أنواط (10) " (11) وهو شجر لذيق اجتناء " (12).

وتجرى تحت هذه الشجرة ، فى الأصول " أنهار تختلج (13) من ماء الحيوان ، والكوثر (14) يمدّها فى كلّ أوان من شرب منها النّغبة (15) فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت ، وسعد (16) من اللبن متخرّقات (17) لا تُغيّر بأن تطول الأوقات ، وجعافر (18) من الرّحيق المختوم " (19).

وقد تركزت عناية أبى العلاء على وصف أنواع معيّة من الشراب وقد استبدّ الخمر باهتمامه فإذا هو يصفه ، ويدقق فى وصفه معوّلاً على ما اشتهر به الخمر فى الدنيا فيقول :

" كأنّه من الرّقة سراب ، لو جرع جرعة منه الحكيم (20) لحكم أنّه الفوز القديمى ".

وشهد له كل وصف الخمر ، من محدث فى الزمن وعتيق الأمر ،

(10) ذلت أنواط : شجرة كانت تعبد فى الجاهلية .

(11) الغفران ص 140.

(12) ن.م.ص.

(13) تختلج أى تجتنب ، ومنه الخليج أى الفرع من النهر .

(14) نهر من أنهار الجنة ، ورد ذكره فى القرآن .

(15) من نغب ينغب ، والنغبة : الجرعة .

(16) مفردة سعيد ، وهو النهر الصغير .

(17) من تخرّق أى اتسع .

(18) مفردة : جعفر وهو النّهر ، وقيل الصغير ، وقيل الكبير الواسع الملائن .

(19) الغفران ص ص 141 - 142 .

(20) هو الحسن بن هانىء المشهور بأبى نواس (762 / 145 - 812 / 196) هو الشاعر المعروف بوصفه

للخمر وحبّه لها . له ديوان شعر . انظر عنه : كحالة : معجم 3 / 300 - 301 .

أن أصناف الأثربة المنسوبة إلى الدار الفاتية :خمرة عانة⁽²¹⁾
وأذرع⁽²²⁾وهى مظنة للنفات، وغزة⁽²³⁾ وبيت راس⁽²⁴⁾ والفلسطية⁽²⁵⁾
نوات الأحراس.

وما جلب من بصرى⁽²⁶⁾ فى السوق⁽²⁷⁾ تبغى به المراجعة عند
السوق ، وما ذكره ابن بجرة⁽²⁸⁾ بوج⁽²⁹⁾ واعتمد به أوقات الحج (...)
وما اعتصر بصرخد⁽³⁰⁾ أو أرض شهاب⁽³¹⁾ لكل ملك غير عمام⁽³²⁾ وما
تردد ذكره من كميت⁽³³⁾ بابل⁽³⁴⁾ وصريفين⁽³⁵⁾ واتخذ للأشراف المنيفين.

(21) بلد مشهور فى جزيرة العرب ، وإليه تنسب الخمرة ، انظر ياقوت : معجم البلدان (3/ 595).

(22) بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقان وعمان إليه نسب الخمرة . انظر ياقوت : معجم (1/ 175).

(23) مدينة مشهورة تقع على مشارف فلسطين من ناحية مصر ، نسب إليها أبو ذؤيب الهزلى الخمرة .

انظر ياقوت : معجم (3/ 799).

(24) اسم لقرينتين معروفتين بالكروم الكثيرة ، وإليهما تنسب الخمرة ، إحداهما ببيت المقدس ، وقيل كورة

بالأردن ، والأخرى من نواحي حلب ، انظر ياقوت : معجم (1/ 776).

(25) هى الخمرة المنسوبة إلى فلسطين.

(26) موضع بالشام من أعمال دمشق ، إليه تنسب الخمرة ، انظر ياقوت : معجم (1/ 655).

(27) مفردة : وسق وهو الحمل.

(28) (يضم الباء وسكون الجيم) خمرة معروف كان بالطائف . انظر : الليغدلى : خزنة الألب : 2/ 496.

(29) هو اسم الطائف نسبة إلى وج بن عبدالحق من المعالقة ، وقيل بلد بالطائف ، وقيل موضع بالبادية.

انظر ابن منظور : لسان العرب (مادة وجج).

(30) بلد بالشام ، إليه تنسب الخمرة . انظر ياقوت : معجم (3/ 380).

(31) موضع فيه ضياع كثيرة وكروم ونخيل يقع بصنعاء . انظر الليغدلى : مرصد الإطلاع (2/ 779).

(32) هو الثقل ، الغبى ، الغليظ الخلقة فى حق.

(33) نوع من أنواع الخمرة .

(34) مدينة قديمة بالعراق ، وإليها ينسب الخمر ، والسحر . انظر ياقوت : معجم (1/ 447).

(35) بلدة تنسب إليها الخمرة . انظر ياقوت : معجم (3/ 384) وانظر الغفران ص 218.

وما عمل من أجناس المُسكرات مَفُوقَاتٍ لِلشَّارِبِ وَمُوكِرَاتٍ (36)
 كَالْجَعَةِ (37) وَالتَّبَعِ (38) وَالْمَزْرِ (39) وَالْمَكْرَكَةِ (40) ذَاتِ الْوِزْرِ ، وَمَا وَلَدَ
 مِنَ النَّخِيلِ ، لِكَرِيمٍ يَعْتَرِفُ أَوْ بِخَيْلٍ .
 وَمَا صَنَعَ فِي أَيَّامِ آدَمَ وَشَيْثَ (41) ، إِلَى يَوْمِ الْمَبْعَثِ مِنْ مَعْجَلٍ أَوْ مَكِيْثٍ ،
 إِذْ كَانَتْ تِلْكَ النَّطْفَةُ (42) مُلْكَةً ، لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ بِرَعَالِيهَا مُشْتَبَعَةً (43) .
 وَتَتَمَيِّزُ هَذِهِ الْخَمْرَةُ عَنْ جَمِيعِ خُمُورِ الدُّنْيَا بِمِيزَةٍ وَهِيَ أَنَّهَا تَحْقِيقُ
 النُّشُوءَ وَلَا تَخْذَرُ ، وَتِلْكَ غَايَةُ الشَّارِبِينَ ، فَهِيَ " الرَّاحُ الدَّائِمَةُ ، لَا الذَّمِيمَةُ
 وَلَا الذَّائِمَةُ (44) بَلْ هِيَ كَمَا قَالَ عُلُقَمَةُ (45) مُفْتَرِيًّا ، وَلَمْ يَكُنْ لِعَفْوٍ
 مُقْتَرِيًّا (46) : [مَنِ الْبَسِيطِ]
 تَشْفِي الصَّدَاعَ وَلَا يُؤْذِيهِ صَالِبُهَا (47) وَلَا يُخَالِطُ مِنْهَا الرَّأْسَ تَدْوِيمًا (48)

(36) من وكر بطله ملأه .

(37) نبيذ الشعير .

(38) (يكسر فسكون أو فتح) نبيذ العسل .

(39) نبيذ الشعير أو الحنطة .

(40) (بضم فسكون فضم أو بضمكين فراء ساكنة) خمر الحبشة وهو من الذرة .

(41) هو ثالث أبناء آدم . انظر دائرة المعارف الإسلامية : فصل : آدم .

(42) (بالضم) الماء الصافي قل أو كثر ، والنطفة هنا بمعنى الجرعة .

(43) الغفران ص ص 149 - 153 .

(44) من ذامة إذا عابه وحقره ، أى أنها خمرة لا ينم شاربها .

(45) هو علقمة بن عبدة (يفتح العين والباء) ويعرف بالفحل (ت. نحو 20 ق.هـ / 603م) شاعر جاهلي كان

معاصراً لأمري القيس ، وله معه مساجلات له ديوان شعر . انظر عنه : الزركلي : الأعلام 4 / 248 .

(46) من اقترى أى طلب الضيافة .

(47) يقال : أخذ صالب أى رعه .

(48) الغفران ص 142 ، ونلاحظ أن البيت من ميمية علقمة التي مطلعها : "هل ما علمت وما استودعت

مكتوم"

ويأتى العسل فى المقام الثانى من حيث أهمية الوصف فى رسالة الغفران ، فقد أفرّد له أبو العلاء فقرة ومنها قوله :

" ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته الغادية إلى الأنوار ، ولا هو فى موم ⁽⁴⁹⁾ متوار ، لكن قال له العزيز القادر : كن فكن ، وبكرمه أعطى الإمكان . وأما لذلك عسلاً لم يكن بالنار مُبَسَّلاً ⁽⁵⁰⁾ ، لو جعله الشارب المحرور غذاء طول الأبد ما قدر له عارض موم ⁽⁵¹⁾ ، ولا لبس ثوب المحموم (...) ولو خالط مناً ⁽⁵²⁾ من عسل الجنان ما خلقه الله سبحانه فى هذه الدار الخادعة كالصّاب ، والمقر والسلع ، والجعدة والشّيح والهييد ⁽⁵³⁾ لعاد ذلك كله وغيره من المعقّيات ⁽⁵⁴⁾ ، يعدّ من اللذائذ المرتقيات ، فأض ⁽⁵⁵⁾ ماكره من الصاب كأنه المعتصر من المصاب ، والمصاب قصب السكر . . . " ⁽⁵⁶⁾.

وهذه الأنهار ليست مجرد سوائل متدفقة وإنما فيها حياة وحركة إذ " تلعب فيها أسماك هى على صور السمك بحرية ونهرية ، وما يسكن فى

(49) مفردة مومة ، وهو الشمع.

(50) من بسل النبيذ : صار حامضاً.

(51) هو بثر أصغر من الجدرى وقيل هو أشد الجدرى.

(52) جمعة أمعاء : كيل أو ميزان أو رطلان .

(53) الصّاب واحدته صابة وهى شجر مرّ ؛ المقر نبات مرّ ، السّلع شجر مرّ . وقيل بقلة خبيثة الطعم ،

الجمدة قيل هى بقلة برية طيبة الرائحة مرة الطعم وقيل هى حشيشة تثبت على شاطئ النهر وتجمد ،

الشّيح نبات طيب الرائحة مر الطعم ، الهييد الحنظل أو حبه.

(54) من أعقى : صار مرّاً مرارة شديدة.

(55) رجّع.

(56) الغفران ص ص 153 - 165.

العيون النّبعية ، ويظهر بضروب النبت المرعية ، إلا أنّه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر ، المقابلة بالنور الباهر . فإذا مدّ المؤمن يده إلى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً لو وقعت الجرعة منه في البحر الذي لا يستطيع مائه الشارب ، لحكّت منه أسافل غوارب " (57).

فإذا أمعنا النظر في ظل تلك الشجر وجدنا عالماً من العناصر الصّغرى التى تساعد على تحديد ملامح الصورة فى تفاصيلها الدقيقة ، وهى عناصر لها أثر كبير فى إحداث اللذة القصوى : فإذا " كؤوس من العسجد ، وأباريق خلقت من الزبرجد " (58) و " نظرة إلى تلك الأباريق خير من بنت الكرمة العاجلية " (59) ومن كل ريق ضمنته هذه الدّار الخادعة ، التى هى لكل شمم جادة " (60).

وهناك " أوان على هيئة الطّير السّابحة ، والغائية عن الماء السّائحة ، فمنها ما هو على صور الكراكى ، وآخر تشاكل المكاكى " (61)، وعلى خلق طواويس وبطّ ، فبعض فى الجارية وبعض فى الشّطّ " (62). وتوجد أكواز من ذهب أيضاً (63) وغير ذلك من الأواني.

ونجد فى هذه الجنة عناصر أخرى تشارك فى إثارة الشهوة ، فمنها

(57) الغفران ص 168.

(58) الغفران ص 142.

(59) لم نتعرف على هذا الموضع.

(60) الغفران ص ص 145 - 146.

(61) الكراكى مفردة كركى (بالضم) وهو طائر كبير طويل العنق والرجلين يكثر الذنب قليل اللحم يأوى إلى الماء أحياناً . والمكاكى مفردة مكاء . طائر صغير مغرّد يألف للريف.

(62) الغفران ص 149.

(63) الغفران ص 231.

العطير الذى يتضوّع من " كُثبان الغنبر ، وضيمران وصل بصعبر⁽⁶⁴⁾ " (65). ولم ينس أبوالعلاء أن يُسكّن جنّته من الحيوان والطيور ، فمن الحيوان البقر والنعام والظباء والخمر الوحشية⁽⁶⁶⁾ ، ومن الطيور الطواويس⁽⁶⁷⁾ والإوز⁽⁶⁸⁾. كما أنه خصّ حيّا من تلك الجنة للحيات⁽⁶⁹⁾ ، وهى - على غرابة وجودها فى هذا الإطار المبهج - ستكون مصدراً من مصادر اللذة. هذه أهم عناصر اللذة التى صاغ منها أبوالعلاء إطار الجنة وهى عناصر مركزة - خصوصاً - على حاسة البصر . وأما حاسة الشمّ فضعيفة. ومثلها حاسة السمع التى لم تشارك إلا فى وصف الغناء. والحقيقة أن أبا العلاء لم يُغرق فى وصف لذة الحواس ، واكتفى بالإشارة إلى أهم العناصر المحرك لتلك اللذة ، وتوقف عند رسم خطوط عالمه السّماوى العامّة . فالأفعال والأقوال هى التى ستعبّر عن اللذة ، وهى وحدها التى سيمتطيها أبوالعلاء للدخول بنا فى ذلك العالم والجوس فيه. إنّ الجنة إطار عام مطلق للكان والزمان : فالمكان لا حدود له ، والحواجز والتضاريس لا توحى بالتشكل الجغرافى ، وإنما توحى بالامتداد والانبساط ، فكانّ هذه الجنة سهل انتشرت عليه بعض الرّوابى والأنقاء والكُثبان . وهذا مما يريح العين ، ويسر القلب ، ويسر الحركة ، فلا جهد

(64) الضيمران ضرب من ريحان البر ، والصعبر : شجر كالستر.

(65) الغفران ص 176.

(66) الغفران ص 175، 195، 198، 199، 270، 271.

(67) الغفران ص 281.

(68) الغفران ص 212، 283.

(69) الغفران ص 364، 367.

ولا إجهاد ولا تعب ولا نصب.

وأما الزمان فتتعدم الحدود فيه أيضاً فلا ظلام ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا فصول ولا شهور ولا أيام . وإنما فى حياة سرمد ، ونور دائم، لا رهق ولا إثارة أعصاب.

وينشأ عن المكان والزمان جو لطيف مريح للنفس ، منعش للقلب ، لذيق الحس ، بعيد " عن الحرّ والقرّ " (70) وظلال وارفة مترامية لا تنتهى .
ف عناصر الجوّ المكونة لهذه الجنة العلوية عناصر منسجمة متناسقة، بينها تآلف ، وفيها جمال أخاذ يؤدى إلى الإحساس بلذة عارمة ونشوة طاغية.

وإذا كانت عناصر الجنة بهذه المثابة من الكمال والانتظام فإن المخلوقات التى أسكنها فيها أبوالعلاء مخلوقات سوية : فلا نصادف فيها ذوات العاهات والنقائص والعيوب الخلقية ، ولا عمى ولا عرج ولا عجز ولا هرم ولا برم ، فالجنة خلو من كل ما يكره الإنسان . وإنما هى تناسق أعضاء وجمال خلقه وبياض ناصع وشباب ونضارة.

ولم يستثن أبوالعلاء من هذا الكمال وهذا الجمال من إنسان وحيوان ونبات إلا ابن القارح ، فقد تركه على حاله ، محافظاً على شيخوخته ، وعلى دنيويته سلوكاً وقولاً وعملاً . وهذا مما يدفعنا إلى القول بأن الجنة العلوية إنما هى دنيا مضخمة ، اجتمع فيها مالا يجتمع فى دنيا الناس من وسائل اللذة ومناحي المتعة . وعلى هذا الأساس فإننا وجدنا هذا الشيخ الذى أزلغت إليه هذه الجنة قد تصرف على عاداته الدنيوية وسلك سلوكاً لا

(70) الغفران ص 175.

يخالف مألوفه ولم يجد عن دينه، ولم يجاف أهواءه وميوله وغرائزه . وقد
مكننا رصد سلوكه ، وأقواله وأفعاله من التعرف على شخصيته الشبكية
والكشف عن نفسيته الانتهازية . وقد تمثل ذلك فى الإقبال على اللذات
الحسية بأصنافها المختلفة وهى :

لذة الطعام : لا يتم لقاء بين بنى آدم ليس فيه طعام وشراب . وتلك
لذة البطن قد أبرزها أبو العلاء إبرازاً ، فتحدث عن الطعام وصنوفه وألوانه .
وكان ابن القارح يقيم المآدب إلا أنه لم يكن يتعب فى إعدادها بل هو يكتفى
بحضور النية " ويبدو له (...) أن يصنع مأدبة فى الجنان (...) فيخطر له
أن تكون كمآدب الدار العاجلة " (71).

وقد اهتم أبو العلاء بوصف ظروف إعداد إحدى المآدب بشئ من
التفصيل وكان قصده من ذلك إبراز العناصر التى تتشارك فى تحقيق أقصى
مدى من اللذة وهذه مراحل إعدادها.

أ- إعداد الطحين : وهو مأخوذ من " برّ الجنة" وله أرحاء لإعداده،
فمنها ما هو على الكوثر ، ومنها ما يديرها الخور العين " فرحى من در ،
ورحى من عسجد ، وأرحاء لم ير أهل العاجلة شيئاً من شكل جواهرهن " .
وأرحاء من صنف آخر لا يديرها الآدميون وإنما " تدور فيها
البهائم (...) فيها أحجار من جواهر الجنة تدير بعضها جمال تسوم فى
عضاه (72) الفردوس . وأينق لا تعطف على الحيران (73) وصنوف من

(71) الغفران ص 268.

(72) مفردة عضامة وعضة : وهى الشجرة العظيمة ذات الشوك . ونلاحظ أن هذه المضاء فى الجنة شكوها

ناعم لا يؤذى وعطرها ريحان

(73) مفردة حُوار ، وهو ولد الناقة قبل أن يفصل نها.

البغال والبقر وبنات صعدة⁽⁷⁴⁾»⁽⁷⁵⁾.

ب- إعداد أصناف اللحوم : فقد جاء الولدان المخلدون
"بالعماريس- وهى الجداء - وضروب الطير التى جرت العادة بأكلها :
كأبجاج⁽⁷⁶⁾ العكارم ، وجوازل⁽⁷⁷⁾ الطواويس ، والسمين من دجاج
الرحمة، وفراريج الخلد، وسيقت البقر والغنم والإبل لتعبط⁽⁷⁸⁾»⁽⁷⁹⁾.

ج- إحضار الطهارة : وقد حضر " من فى الجنة من الطهارة الساكنين
بحلب على ممر الأزمان " ⁽⁸⁰⁾.

د- إحضار المدعويين : فقد " افترق غلمانه الذين كأنهم اللؤلؤ
المكنون لإحضار المدعويين ، فلا يتركون فى الجنة شاعراً إسلامياً ولا
مخضرباً ولا عالماً بشئ من أصناف العلوم ولا متادباً إلا أحضروه"⁽⁸¹⁾.

هـ- الأكل : فإذا جهز الطعم " توضع الخُون⁽⁸²⁾ من الذهب
والفواثير من اللجين، ويجلس عليها الآكلون، وتنقل إليهم الصحاف، فتقيم
الصحفة لديهم، وهم يصيبون مما ضمنتَه " ⁽⁸³⁾.

⁽⁷⁴⁾ هى خمر الوحش.

⁽⁷⁵⁾ الغفران ص 270.

⁽⁷⁶⁾ مفردة بُج (بالضم) وهو فرخ للطائر ، والمكرمة هى أنثى الحمام .

⁽⁷⁷⁾ مفردة جوزل وهو فرخ الحمام أو الطاووس .

⁽⁷⁸⁾ عبط الحيوان : ذبحه وهو سمين لا علة فيه.

⁽⁷⁹⁾ الغفران ص 271.

⁽⁸⁰⁾ ن.م.ص.

⁽⁸¹⁾ الغفران ص 272.

⁽⁸²⁾ مفردة خوان ، وهو ما يؤكل عليه.

⁽⁸³⁾ الغفران ص 272.

وتتفتح شهوات الحضور أمام الطعام وتتأجج فلا يكتفون بما هو جاهز لأن العين تشتتني ، فإذا مرت الطواويس جلبت الأنظار إذ الواحد منها " يروق من رآه حسناً " ، فيشتهى أبو عبيدة (84) إحداها مصوصاً (85) فيتكون كذلك في صحفة من الذهب ، فإذا قضى منه الوطر انضمت عظامه بعضها إلى بعض. ثم تصير طاووساً كما بدأ (86) ولم تسلم الإوز من شهوة القوم فإذا مرة الإوزة " تمنّاها بعض القوم شواء فتتمثل على خوان من الزمرد . فإذا قضيت منها الحاجة عادت بإذن الله إلى هيئة ذوات الجناح. ويختارها بعض الحاضرين كردناجا (87) ، وبعضهم معمولة بسُمّاق (88) وبعضهم معمولة بلبن وخل وغير ذلك ، وهي تكون على ما يريدون " (89).

ولذة الطعام ليست مقتصرة على بنى آدم في جنة الغفران وإنما تنسحب أيضاً على حيوانها . فقد شاهد ابن القارح أسداً "يفترس من صيران الجنة وحسبها (90) فلا تكفيه هنيئة ولا هند (91) " (92) وكذلك الذئب فكن يقتنص ظباء " فيفنى السربة (93) بعد السربة " (94).

(84) هو معمر بن المثنى (110/728 - 209/824) أديب لغوي نحوي عالم بالشعر والغريب والأخبار والنسب ، له عدة مؤلفات لنظر عنه كحالة : معجم 310/12.

(85) اللحم يطبخ وينقع في الخل.

(86) الغفران ص 281.

(87) هو الكباب.

(88) نبات من التوابل.

(89) الغفران ص 283.

(90) الحسيل : أولاد البقرة الواحدة.

(91) اسم المائة من الإبل وقيل للماتنين .

(92) الغفران ص 304.

(93) (بضم السين) القطيع والجماعة من الظباء والخيول وغيرها.

(94) الغفران ص 306.

وليس حديث أبي العلاء عن التهام الأسد والذئب هذه الأعداد الهائلة من حيوان الجنة من قبيل الصدفة أو بغية زركشة النص وتزيينه ، وإنما هو موقف أراد أن يلمح إليه ، ذلك أننا إذا استحضرنّا لذة الطعام عند الإنسان وعند الحيوان لاحظنا قاسماً مشتركاً بينهما وهو النهم . فلا يكتفى الواحد منهما بأكل ما هو في حاجة من الحيوان ، وإنما يسرف . وفي ذلك إشارة ذكية إلى سلطان لذة البطن على الإنسان : فإذا كان الإنسان لا يراقب شهوته ولا يتحكم فيها فيسرف في الاستجابة إليها ، فما ذلك إلا دليل على خسته فكيف لا يسلط عقله عليها ؟ إن أبا العلاء يمقت أن يتحول الإنسان إلى حيوان مفترس يقتل العماريس والطير والبقر والإبل ويلتهمها التهاماً . وهذا السلوك اللامعقول قد ألهم الأسد أن يخاطب ابن القارح محتجاً عليه وعلى عباد الله إسرافهم في اللذة فيقول له :

" يا عبدالله أليس أحكم في الجنة تقدم له الصّحفة وفيها البهط والطريم مع النهيدة ⁽⁹⁵⁾ فيأكل منها مثل عمر السموات والأرض ، يلتذ بما أصاب فلا هو مكتف ولا هي الغاتية ؟ " ⁽⁹⁶⁾

لذة الشراب : إن الشراب لذة مصاحبة للطعم عادة فإعداداه والعناية به وبأدواته من أهم العناصر المكونة للذة في جنة الغفران . وقد رأينا أن أبا العلاء قد أجرى أنهار الشراب في أرجاء تلك الجنة ، وهذا لا يعنى أن الشراب غائب عن المأدبة التي تحدثنا عنها آنفاً فبعد أن أكل المدعوون "

⁽⁹⁵⁾ البهط (بتشديد الطاء) الأرز يطبخ باللبن والسمن ، الطريم (كسرة فسكون مفتحة): العسل ، النهيدة الزبدة الضخمة.

⁽⁹⁶⁾ الغفران ص 305.

جاء السقاة بأصناف الأشرية" (97).

ويبدو أن ابن القارح مفرم بنوع معين من الشراب وهو الفقاع (98). فلا يكتفى بما قد توفر من خمر وعسل وغيرهما من السوائل . " ويخطر له ذكر الفقاع الذي كان يعمل في الدار الخادعة . فيجري الله بقدرته أنهارا من فقاع ، الجرعة منها لو عدلت بلذات الفانيّة منذ خلق الله السماوات والأرض إلى يوم تطوى الأمم والآخرة لكانت أفضل وأشرف " (99).

لذة الغناء : إن الأصوات في جنة الغفران تطرب النفوس وتريح القلوب فرحا وغبطة ، فالآنية إذا قذفت في النهر " يسمع لها أصوات تبعث بمثلها الأموات " (100).

ولكن ابن القارح لا يكتفى بمثل هذه الأصوات الطبيعية في الجنة وإنما كان يحب متعة الطرب واهتزاز النفس ، فكان لا يتردد في إحضار " من في الجنة من المغنين والمغنيات " (101). وفي المأدبة التي تحدثنا عنها آنفا ، وإثر الأكل والشراب ، أمر ابن القارح بإحضار " جماعة كثيرة من رجال ونساء : فيهم الغريض (102) ومعبد (103) وابن مسجح (104) وابن

(97) الغفران ص 272.

(98) شراب يصنع من الشعير ويتميز بكثرة الفقائيع التي تعلوه.

(99) الغفران ص 280.

(100) الغفران ص 172.

(101) الغفران ص 272.

(102) هو عبدالمك (ت نحو 95 / 714) من أشهر المغنين سكن مكة. انظر عنه الزركلي: الأعلام 4 / 156.

(103) هو معبد بن وهب (ت 126 / 743) أشهر مغنى المدينة ، وكان أدبيا فصحا اتصل بأمرأى بنى أمية وارتفع شأنه عندهم. لأصواته ولخباره كثيرة. انظر عنه الزركلي : الأعلام 7 / 264.

(104) هو سعيد (ت نحو 85 / 704) ملحن ومغن. كان أسود. رحل من مكة إلى الشام فأخذ للحنان الروم وانتقل إلى الفارس ونقل لحنائها إلى العربية . له مذهب في التلحين ومن تلاميذه ابن سريج والغريض.

انظر عنه الزركلي : الأعلام 3 / 101.

سريج⁽¹⁰⁵⁾ " وإبراهيم الموصلي⁽¹⁰⁶⁾ وابنه إسحاق⁽¹⁰⁷⁾ (...) وبصيص⁽¹⁰⁸⁾ وبناتير⁽¹⁰⁹⁾ وعنان⁽¹¹⁰⁾ " (111) ولم تغب عن هذا المجلس الجرافتان⁽¹¹²⁾ رغم بعدهما عن المكان ، فقد حضرتا في لمح البصر ، وكاتتا نجمتى الحفل - حسب تعبيرنا اليوم - فكاتتا " تطربان من سمع وتستفزان الأفئدة بالسرور " (113).

ولم ينفرد النساء والرجال بإطراب ابن القارح وصحبه ، وإنما شاركت في ذلك " إوز الجنة " فقد ألهمن الغناء فانتفضن وصرن " جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة ، وبأيديهن المزهرة وأنواع ما يلتبس من الملامى " . وكان لغناء إحدى الإوزات أثر عجيب على ابن القارح ، فإذا

(105) هو عبيد الله (20/ 640 - 98/ 716) من أشهر المغنين كان يرتجل الغناء . انظر عنه الزركلى : الأعلام 4/ 194.

(106) هو ابن إبراهيم بن ماهان (125/ 743 - 188/ 804) لوحد زمانه فى الغناء واخترع الألحان وشاعر أصله فارسى وقام بالموصل ، واتصل بالخلفاء . انظر عنه الزركلى : الأعلام 1/ 58 - 59.

(107) يكنى أبو محمد بن النديم (155/ 772 - 245/ 850) تفرد بالغناء وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام روياً للشعر حافظاً للأخبار شاعراً ، نادم الرشيد والعامون والوائق وله تأليف عديدة . انظر عنه الزركلى : الأعلام 1/ 292.

(108) جارية من مولدات البادية حلوة الوجه حسنة الغناء كانت مولاة ليحيى بن نفيس ، قيل إن للمهدى اشتراها منه سراً وهو ولى عهد بمبلغ سبعة عشر ألف دينار . انظر عنها الأصفهاني : الأغاني ط. بولاق 13/ 114.

(109) مغنية محبسة ليحيى بن خالد اشتهرت بالجمال والظرف والأدب . انظر عنها الأصفهاني : الأغاني 5/ 248 - 16/ 136.

(110) جارية للناطلى مغنية فى العصر العباسى ولها شعر . انظر الأصفهاني : الأغاني 10/ 101.

(111) الغفران ص ص 272 - 273.

(112) هما قينتا معاوية الجرمي ، غنتا لوفد عاد ، فمسوا قومهم . انظر الخبر الميداني : الأمثال 1/ 87.

(113) الغفران ص 275.

هو يطلب المزيد ، فقال لها :

" اعملى قول أبى أمانة ⁽¹¹⁴⁾ وهو هذا القاعد : [من الكامل]

أَمِنْ آلِ مِئَةٍ رَاحٍ أَوْ مُقْتَدٍ . . عَجَلَانَ ذَا زَادٍ وَ غَيْرَ مَزُودٍ ؟

ثَقِيلاً أَوَّلَ . فتصنعه . فتجئ به مطرباً ، وفى أعضاء السامع متسرباً . ولو نُحِتَ صنم من أحجار أو دفٍ أَشِيرَ ⁽¹¹⁵⁾ عند النجار ، ثم سمع ذلك الصوت لرقص . فَيُرد عليه (...) زَوْلٌ ⁽¹¹⁶⁾ تعجز عنه الحيل والحوال. ⁽¹¹⁷⁾ فيقول : هَلَمْ خَفِيفَ الثَّقِيلِ الأول . فتنبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض ، لَأَقَرَّ أَنْ ما ترنم به مريض . فإذا أجادته ، وأعطته المِهْرَةَ ⁽¹¹⁸⁾ وزادته ، قال : عليك بالثقل الثانى ما بين مثالك والمثانى . فتأتى به على قَرَى لو سمعه عبدالله بن جعفر ⁽¹¹⁹⁾ لقرن أغاني بديح ⁽¹²⁰⁾ إلى هدير ذى المشفر ⁽¹²¹⁾.

فإذا رأى ذلك قال : (...) فصبرى إلى خفيف الثقل الثانى، فإنك لمُجيدة مُحسنة تطرد بغنائك السُّنة ! فإذا فعلت ما أمر به أتت

⁽¹¹⁴⁾ هو النابغة الذبياني (ت نحو 18 ق هـ / 604) شاعر جاهلى . انظر عنه كحالة : معجم (4 / 188).

⁽¹¹⁵⁾ من أشر الخشبة يأشرها أى نشرها.

⁽¹¹⁶⁾ أى عجب واندماش.

⁽¹¹⁷⁾ الحول : القدرة على التصرف.

⁽¹¹⁸⁾ يقال أعطى الشيء المِهْرَةَ أى أداة على ما ينبغي .

⁽¹¹⁹⁾ هو عبدالله جعفر بن أبى طالب (1 / 622 - 700/80) كان شهماً كريماً مدحه الشعراء، وكان أحد

الأمراء فى جيش على يوم صفين . انظر عنه الزركلى : الأعلام 76/4.

⁽¹²⁰⁾ هو مولى عبدالله بن جعفر وكان معجباً بغنائه . انظر عنه الأصفهاني : الأغاني 1/14.

⁽¹²¹⁾ المشفر : الشفة ، وهو يعنى الجمل.

بالبرجين (122) وقالت للنفس : ألا تمرحين !

ثم يقترح عليها : الرمل وخفيفه ، وأخاه الهزج ونفيفه . ويعترف ابن القارح بأن هذه المغنية قد أطربته . ولم تترك فى نفسه ساكناً إلا حركته . فيقول لها : " ويحك ألم تكونى الساعة إوزة طائرة والله خلقك مهدية لا حائرة ؟ فمن أين لك هذا العلم كأنك لجذَل النفس خِلم (123) ؟ لو نشأت بين مغبد وابن سريج ، لما هجنت السامع بهذا الهيج ، فكيف نقضت بكه إوز ، وهززت إلى الطرب أشد هز ؟ " (124).

ولقد كشف لنا ابن القارح عن نفس مولعة بالغناء ، محبة للطوب ، باحثة عن لذة الصوت الحسن ، فلا يكتفى بما سمع من تلك الإوزات ، وإنما طلب منهن صوتاً آخر ، ففعلن . فكان " لا يمرّ حرف ولا حركة ، إلا ويوقع مسرة لو عدلت بمسرات أهل العاجلة منذ خلق الله آدم إلى أن طوى نريته من الأرض لكانت الزائدة على ذلك زيادة اللج المتموج على دمة الطفل ، والهضب الشامخ على الهباء المنتفضة من الكفل (125) (126) .

لذة الرقص : إن الرقص أداة أخرى من أدوات تحقيق اللذة . وقد كان ابن القارح يحب الرقص على الشعر . والفصل بين الغناء والرقص أمر صعب . فتذكر عندما أعد مأدبة الطعام " الأبيات التى تنسب إلى الخليل بن

(122) (يكسر الباء وضمها) للشداقد والدوامى.

(123) (بالكسر) هو للصديق والصاحب.

(124) الففران ص ص 212 - 215.

(125) (بالكسر فالمكون) خرقة على علق الثور تحت اللير ، أو شئ مستدير يوضع على منام الجمل .

(126) الففران ص 225.

أحمد⁽¹²⁷⁾، والخليل يومئذ في الجماعة ، وأنها تصلح لأن يرقص عليها .
 فينشئ الله القادر بلطف حكمته شجرة من عفر - والعفر الجوز - فتونع
 لوقتها . ثم تنفض عدداً لا يحصيه إلا الله سبحانه ، وتنشق كل واحدة منه
 عن أربع جوار يرقن الرائين ، ممن قرب والنائين ، يرقصن على الأبيات
 المنسوبة إلى الخليل وأولها: [من المجتث]

إن الخليل ط تصدع .: فطر بذائك أوفغ
 لولاً جوار حسان .: مثل الجاذر أربع
 أم الرباب وأمنما .: ء والبقوم وبوزع
 لقلت للظاعن : اطعن .: إذا بدأ لك ، أودع

فتهتز أرجاء الجنة " (128).

لذة الجنس : إن هذه اللذة أساسية في جنة الغفران فقد نالت حيزاً
 كبيراً من اهتمام أبي العلاء فتحدث عنها في مصادرها المختلفة.
 أ- لذة الحور المخلدين : وهي تنشأ عن وصال النساء اللاتي دخلن
 الجنة جزاء لهن . وقد اختلا ابن القارح بحوريتين له من الحور العين "
 ولم يتردد أبو العلاء في رصد حركته في تلك الخلوة والكشف عن سلوكه
 فيها فقال :

(127) أبو عبد الرحمن ، القراهيدى (100/ 718 - 170 / 786) نحو لغوى . أول من استخرج للمروض . له

مصنفات . انظر عنه كحالة : معجم 4 / 112 .

(128) الغفران ص 279 .

" فإذا بهره ما يراه من الجمال قال : أعز علي بهلاك الكندي⁽¹²⁹⁾

إني لأذكر بكما قوله : [من الطويل]
كذالك من أم الحوثرث قبلها . : وجارتها أم الرباب بمأسـل
إذا قامتا تـضوـع المسك منهما . : نسيم الصبا جاءت برياً القـرـفـل

(...) وأين صاحبناه منكما ، لا كرامة لهما ، ولا نعمة عين ؟
لجلسة معكما بمقدار دقيقة من دقائق الدنيا خير من ملك بنى آكل
المرار⁽¹³⁰⁾ وبنى نصر⁽¹³¹⁾ بالحيرة ، وآل جفنة ملوك الشام⁽¹³²⁾ . ويقبل
على كل واحدة منهما يترشف رضاها " ⁽¹³³⁾.

ب- لذة حور الإوز : وشأن هؤلاء الحور طريف إذ أنهن في الأصل
من إوز الجنة " جئن للغناء في مأدبة أقامها ابن القارح ، وبعد أن شنفن
أسماع الحضور ، وحان وقت الفراق ، رأى صاحب المأدبة أن يختار كل
واحد منهم حورية إوزة تعود معه إلى بيته تلاحنه " أرقى الألعان " ؛
فاعترض أحدهم على هذه الفكرة ورفضها خوفاً من أن " يسمى فاعلو ذلك
أزواج الإوز " ⁽¹³⁴⁾.

⁽¹²⁹⁾ هو امرؤ القيس (130 ق هـ / 497-80 ق هـ / 545) شاعر يمانى الأصل ، قتل أبوه فطالب بثأره
حتى مات . انظر عنه كحالة : معجم 2 / 320.

⁽¹³⁰⁾ بطن من كندة من القحطانية كان منهم ملوك كندة . انظر عنهم كحالة : معجم قبائل العرب ، مؤسسة
للرسالة (ط 5) 1 / 39.

⁽¹³¹⁾ هم فرع من خثعم من أمار من كهلان من القحطانية . انظر عنهم كحالة : معجم قبائل العرب 5 / 259.

⁽¹³²⁾ هم جفنة بن عمرو ، منهم ملوك الشام . انظر عنهم كحالة : معجم قبائل العرب 1 / 179.

⁽¹³³⁾ الغفران ص 285.

⁽¹³⁴⁾ الغفران ص 234.

ج- لذة الحية : ومن طريف ما حدثنا عنه أبو العلاء أيضا أن حبة من حبات الجنة المخلدات قد تعلقت بأذن القارح . وقد كانت ذكوة تحفظ الشعر ، وتعرف قواعده معرفة حقاً ، فإذا دهش مما سمعه منها قالت له مرادة :

" ألا تقيم عندنا برهة من الدهر ؟ فإني إذا شئت انتفضت من إهلي فصرت مثل أحسن غواني الجنة ، لو ترشفت رضابي لعلمت أنه أفضل من الدراية التي ذكرها ابن مقبل ⁽¹³⁵⁾ في قوله : [من المتقارب] :

سَقَتْنِي بِصَهْبَاءِ دِرْيَاقَةٍ . : متى مَا تَلَيْنَ عِظَامِي تَلْنِ ⁽¹³⁶⁾

ولو تنفست في وجهك لأعلمتك أن صاحبة عنطرة ⁽¹³⁷⁾ تَفْلِيه ،

صدوف - والصدوف الكريهة رائحة الفم - وإنما تعنى قوله : [من الكامل]

وَكأن فَارَةً تَاجِرٍ بِقِسْمَةٍ . : سَبَقَتْ عَوَارِضُهَا إِلَيْكَ مِنَ الْفَمِ ⁽¹³⁸⁾

ولو أدنيت وسادك من وسادي لفضلتني على التي يقول فيها

الأول ⁽¹³⁹⁾ : [من البسيط].

بَآتَ رَقُوداً وَسَارَ الرُّكْبُ مُكْبِجاً . : وَمَا الْأَوَائِسُ فِي فِكْرِ لِسَارِينَا

كَأن ريقها منك على ضرب . : شَيَّبَتْ بِأَصْنَهَبٍ مِنْ بَيْعِ الشَّامِينَا

⁽¹³⁵⁾ هو تميم بن أبي (ت بعد 657 / 37) شاعر مخضرم ، أسلم . فكان يكي أهلكى الجاهلية . له ديوان

شعر . انظر عنه الزركلي : الأعلام 2 / 87.

⁽¹³⁶⁾ الصهباء : الخمرة ، الدراية : هي للترياق وهي دواء للسم.

⁽¹³⁷⁾ صاحبة عنطرة هي عيلة ، وقد شيب بها في شعره حتى لا تخلو له قصيدة من ذكرها . وعنطرة شاعر

جاهلي (ت نحو 22 ق هـ / 600) انظر عنه الزركلي : الأعلام 5 / 91.

⁽¹³⁸⁾ هذا البيت من معلقة عنطرة وفيه يصف أنفاس عيلة ، والفارة هي فارة المسك ، والقسيمة قيل هي

سوق المسك ، وقيل هي الإبل التي تحمل المسك.

⁽¹³⁹⁾ هذه الأبيات تنسب إلى مجنون ليلى .

يارب، لَا تَسْلُبْنِي حَبَّهَا أَبَدًا .: وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ : آمِينَ .

وعندما لا يستجيب ابن القارح ويعرض عن الحية مهرولاً تناديه

قائلة :

" هلم إن شئت اللذة فإني لأفضل من حية ابن مالك التي ذكرها

العيسى⁽¹⁴⁰⁾ في قوله : [من الطويل]

مَا وَلَدْتَنِي حَيَّةُ ابْنَةِ مَالِكٍ .: سِفَاحًا وَلَا قَوْلِي أَحَادِيثَ كَاذِبٍ

وأحمد عشاراً من حية ابنة أزهري التي يقول فيها القائل : [من

الطويل]

إِذَا مَا شَرِبْنَا مَاءَ مُزْنٍ بِقَهْوَةٍ .: ذَكَرْنَا عَلَيْهَا حَيَّةُ ابْنَةِ أَزْهَرَا⁽¹⁴¹⁾

د- لذة حور الجنة : عندما لم يستطع ابن القارح قضاء وطره من

حوريات الإيس وبقيت شهوته شهوة متفجرة ولذته ناقصة سأل ملكاً من

ملائكة الجنان عن " الحور العين " اللاتي خلقهن الله جزاء للمتقين ،

فأرشده الملك إلى حدائق " لا يعرف كنهها إلا الله " وقال له: " خذ ثمرة من

هذا الثمر فأكسرها فإن هذا الشجر يُعرف بشجر الحور". وقد وصف لنا

أبو العلاء ما فعل ابن القارح في هذه الحدائق قائلاً :

يأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة أو ما شاء الله من الثمار ،

فيكسرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء يبرق⁽¹⁴²⁾ لحسنها حوريات

(140) لعله عنتر بن شداد صاحب عبلة ، ونلاحظ أن في البيت خللاً عروضياً .

(141) الغفران ص من 364 - 371.

(142) من برق أى تحير ودش فلم يصبر .

الجنان . فتقول من أنت يا عبدالله ؟ فيقول أنا فلان ابن فلان ، فتقول: إني أمني بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة فعند ذلك يسجد إعظاماً لله القدير (...)

ويخطر في نفسه ، وهو ساجد أن تلك الجارية - على حسنها - ضاوية⁽¹⁴³⁾، فيرفع رأسه من السجود ، وقد صار من ورائها ردف يضاهاى كثنبان عالج⁽¹⁴⁴⁾ وأنقاء⁽¹⁴⁵⁾ الدهناء⁽¹⁴⁶⁾ وأرملة ييزرين⁽¹⁴⁷⁾ وبنى سعد، فيهاى من قدرة الله اللطيف الخبير ، ويقول : يا رازق المشرقة سناها ، ومبلغ السائلة منها (..) ، أسألك أن تقصر بوص⁽¹⁴⁸⁾ هذه الحورية على ميل فى ميل ، فقد جاز بها قدرك حد التأمل . فيقال له أنت مخير فى تكوين هذه الجارية كما تشاء . فيقتصر من ذلك على الإرادة " (149).

هـ- لذة الغلمان : قد تعرض أبوالعلاء إلى هذه اللذة إشارة : ذلك أن إبليس تجرأ على طرح السؤال التالى على ابن القارح فقال له :
" أسألك عن خبر تُخبرنيهِ : إن الخمر حُرمت عليكم فى الدنيا ، وأُحِلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخَلدين فِعَل أهل

(143) أى نحيفة قليلة الجسم ، وهذا من عيوب جمال المرأة قديماً إذا العرب كانوا يحبون المكتنزة .

(144) رمال على طريق مكة انظر ياقوت : معجم 3 / 591.

(145) مفردة نقا : وهو القطعة المحنودة من الرمل.

(146) رمال فى طريق اليمامة إلى مكة لا يعرف طولها حتى ضرب بها المثل . فقيل أوسع من الدهناء.

انظر ياقوت : معجم 2 / 636.

(147) رمل لا تترك أطرافه فى ديار بنى سعد . انظر ياقوت : معجم 4 / 1006

(148) (بالضم والفتح) جمعه أبواص : العجيزة.

(149) الغفران ص ص 288 - 298.

الْقَرِيَّات (150) م (151).

ولم تكن غاية أبى العلاء من هذا السؤال الوصول إلى الجواب،
فذلك لا معنى له . وإنما غايته تتمثل في استيفاء مصادر اللذة الجنسية.
وهو يسعى من وراء ذلك إلى الكشف عن مكانة هذه اللذة في حياة ابن
القارح ، فهو يقتنصها من أى مصدر كان : فلا فرق - عند هذا الرجل -
بين المرأة - حرة أو أمة - والغلام ، ولا فرق - عنده بين الإنسان
والحيوان . فإذا كان قد أعرض عن تلك الحية التى راودته ، ففرّ منها ،
فليس ذلك إلا مراوغة ونوعاً من التمويه ، لأننا وجدناه يعود إليها و " يتخيل
بها أهاضيب الفردوس ورمال الجنان " وعندما نقول له : " أيها العبد

المرحوم أظنك تحذى بى فعال الكندى فى قوله : [من الطويل]

فَقَمْتُ بِهَا أَمْشَى تَجَرُّ وَرَاعِنَا .: عَلَى إِثْرِنَا أَنْيَالِ مِرْطٍ مَرَحِلٍ (152)

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَاتَّحَى .: بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي قِفَافٍ عَقَنْقَلٍ (153)

فَصَرْتُ بِفُودَى رَأْسِهَا فَتَمَايَلَتْ .: عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَلِ (154)

فإنه لا يتردد فى القول " العجب لقدرة الله ! لقد أصبت ما خطر فى

السويداء " (155).

(150) مفردة قرية وأهل القرىات يعنى بهم أبو العلاء قرى قوم النبی لوط الذین كانوا یفاحشون الغلمان .

(151) الغفران ص 309.

(152) المرط (بكسر فسكون) كل ثوب غیر مخیط.

(153) الخبت : بطن من الأرض ، قفاف (مفردة قَفَّ بالضم) : هى حجارة مترانف بعضها إلى بعض لا

یخالطها لَین ، عَنقَل : معقَد.

(154) مصر : جذب وثلى ، الفودان : جانباً الراس ، المخلخل : موضع الخلخال.

(155) الغفران ص 373.

ولذة الجنس لا تتفصل عن لذة الطعام في رسالة الغفران ، إذ جمع أبو العلاء بينهما جمعاً عضوياً ، فشجر الحور يعطى ثماراً سفرجلاً ورماتاً وتفاحاً وغير ذلك ، إلا أن هذه الثمار - على غير المألوف - تعطى حوراً عيناً تسحر الأبصار ، وتأخذ الألباب ، يسجد لها ابن القارح. ولم يكن ابن القارح ليكتفى بالحورية الواحدة يواصلها ، ولم يكن يتحرج من الخلوة بالحوريتين يترشف رضابهما ، وإنما كان يحب النساء الكثيرات يتمتع بهن ، وهذا أقصى مراده . فقد تمنى أن ينعم بما نعم به امرؤ القيس ⁽¹⁵⁶⁾ "فينشئ الله جلت عظمتة - حوراً عيناً يتماقن ⁽¹⁵⁷⁾ في نهر من أنهار الجنة . وفيهن من تفضلهن كصاحبة امرئ القيس ، فيترامين بالثرمد ⁽¹⁵⁸⁾ . وإنما هو كأجل طيب الجنة ، ويعقر لهن الرّاحلة ، فيأكل ويأكلن من بضيعها ما ليس تقع الصفة عليه من إمتاع ولذادة " ⁽¹⁵⁹⁾ .

لقد أباح أبو العلاء مصادر اللذة الجنسية كلها ، فوفر لابن القارح العدد الكبير من النساء والغلمان ، وجمعهم له ، وقربهم إليه ، بل إنه مكنه من قدرة " التكوين " حسب مشيئته بمصادر لذته . فيستطيع أن يصوغ الجارية على مقدار شهوته. إن ذلك كله مظهر من مظاهر الكشف عن حقيقة الطبيعة البشرية : فالإنسان قد لا يتورع عن إتيان المحرم والممنوع ، وعن اختراق " المستحيل " لتحقيق شهوة الجنس . وهذا ينزله

⁽¹⁵⁶⁾ المقصود قصة هذا الشاعر مع فاطمة بنت عمه وصواحبها في دارة جلجل ، وقد بسطها في معلقته وهي قصة مشهورة في أخباره .

⁽¹⁵⁷⁾ ماقله ، وتماقلا : غاطه وتغطا في الماء .

⁽¹⁵⁸⁾ هو نبات مالح مر أغصانه بلا ورق . ونلاحظ أن هذا النبات تحول في الجنة إلى ريحان .

⁽¹⁵⁹⁾ الغفران ص 373 .

إلى درجة الحيوان بل يحطه إلى ما دون ذلك .
فهذه اللذة مثلها مثل لذة الطعام تهدر كرامة الإنسان . وهذا ما يلباه
عقل أبي العلاء .

لذة الحركة : إن الحركة في دنيا الناس لا لذة لها في اعتقادهم، بل
إنهم يرون أنها سبب من أسباب الشقاء لما تُحدثه من تعب وإعياء ، بل
إنهم يرون أنها سبب من أسباب الشقاء لما تُحدثه من تعب وإعياء . إلا أن
أبا العلاء رفض أن تكون جنته جنة ساكنة ، راكدة، لا حياة فيها، فبحث
فيها النشاط والحركة. فإذا الأتھار "تجرى" (160) والنجيب يملع (161) "والخيل
"تسبح" (162).

وكان ابن القارح يتنقل بحرية تامة ، فلا حدود ، ولا موانع ، ولا
حواجز . كل ما في الأمر أنه يبحث نفسه على الحركة . ولهذا رأيناه يقطع
الجنة من أُنباها إلى أقصاها . وكان يجد في ذلك لذة لا توصف " فإذا رأى
نجيبه يملع (163) (...) رفع صوته متمثلاً بقول البكرى (164) ... " (165).
ومن مظاهر الحركة في الجنة القنص . وللقنص عند هواته لذة

(160) الغفران ص 141.

(161) الغفران ص 176.

(162) الغفران ص 197.

(163) أملع : أسرع بخفة.

(164) هو الأعشى (ت 7 / 629) يكنى أبا بصير شاعر مخضرم من أصحاب المعلقة . انظر عنه كحالة :

معجم 65/13-66.

(165) الغفران ص 176.

عظيمة . فهذا عدى بن زيد ⁽¹⁶⁶⁾ يدعو ابن القارح إلى التمتع بالقنص فيقول له : " هل لك أن نركب فرسين من خيل الجنة ، فنبتشهما على صيرتها ⁽¹⁶⁷⁾ ، وخطان ⁽¹⁶⁸⁾ نعلمها ، وأسراب طباثها ، وعائنات ⁽¹⁶⁹⁾ حمرها ، فإن للقنص لذة قد تنغضت ⁽¹⁷⁰⁾ لك بها " ⁽¹⁷¹⁾ . ويعتذر ابن القارح لول الأمر بدعوى خوفه من السقوط . ثم يقبل على القنص إقبالاً " فإذا نظروا إلى صولر ترتع في دقاري الفردوس - والدقاري الرياض - صوب مولاى الشيخ المطرد - وهو للرمح القصير - لأخمن نبال " ⁽¹⁷²⁾ . وهكذا كشف لنا ابن القارح عن قصص ماهر سريع الحركة دقيق الإصالة .

ومن مظاهر الحركة أيضاً للعب ولئن خصّ أبو العلاء جنته بالكبار ، دون الصغار ، فإنه لم يحرم الكبار من لذة الصغار . فجعلهم يحنون إلى الطفولة ويتمتعون باللعب . وهذا ما فعله أدباء الفردوس إذ " تهشّ نفوسهم للعب ، فيقذفون (...) الآتية في أنهار الرحيق ، ويصفقها الماذى ⁽¹⁷³⁾ المعترض أى تصفيق " ⁽¹⁷⁴⁾ .

⁽¹⁶⁶⁾ هو عدى بن زيد القنصى (ت 35 ق.هـ / 590) شاعر بحسن الرمي بالشباب ، له ديوان شعر . انظر

عنه كحلالة : معجم 6 / 274 .

⁽¹⁶⁷⁾ مفردة صولر (بالضم والكسر) قطع البقر .

⁽¹⁶⁸⁾ مفردة : خيط الجماعة من النعل أو الجراد .

⁽¹⁶⁹⁾ مفردة : عانة القطيع من بقر الوحش .

⁽¹⁷⁰⁾ قنص من قنص بمعنى نهش .

⁽¹⁷¹⁾ القرن من 195 .

⁽¹⁷²⁾ القرن من 197 - 198 .

⁽¹⁷³⁾ هو السل .

⁽¹⁷⁴⁾ القرن من 172 .

2- اللذة المعنوية :

رأينا أن أبا العلاء قد استجاب لابن القارح ، فحقق له شهواته ، ومكنه من كل ماعن له ، وورد على باله ، وخطف خاطره ، وقرب إليه كل لذة بعيدة ، وسهل عليه تحقيقها إلى أدنى الجهد ، بل إلى الجهد الصِفَر .
إلا أن أبا العلاء لم ينس نفسه في هذا الجو الشهوى : فلقد كان حضوره حضوراً خفياً ، ولكنه حضور دائم . ولم يكن ذلك بمشاركة ابن القارح في لذاته الحسية ، فعلقه بأبي عليه الاتحاد إلى الدرك الأسفل . وإنما كان يوازي بين اللذتين : لذة ابن القارح ولذته هو ، أو يبطن لذته في لذة ابن القارح . وقد كانت لذته منحصرة في الكلمة الطيبة والعمل الصالح (175).

أولاً الكلمة الطيبة : إن الكلمة - في عقيدة أبي العلاء - أفضل من النسل ، وأعظم من كل كسب ، ولو كان الدنيا كلها (176). فهي - عنده - الكيان كله ، والوجود جميعه ، ولا كيان ولا وجود خارجها . ولهذا وجدناه في جنة غفرانه يتعشقها ، ويخضع لها ابن القارح حيثما وجد : في المحشر والجنة والنار ، في المجلس والنزهة ، في الوحدة والجماعة ، في المؤانسة والمنافرة ، والسبب في تسليط الكلمة الطيبة على ابن القارح في كل أحواله يعود إلى أن هذا " المتأدب " يستهين بها ، ويمتهنها ، إذ كان يتكسب بها ، ويجعلها واسطة لتحقيق مآربه. ولذلك كان أبو العلاء ذا حيلة ودهاء : فقد

(175) استند أبو العلاء للمروج بآب ابن القارح إلى العالم العلوي وإخاله الجنة إلى سند ديني وهو الآية - إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه - (فاطر الآية 10) . ولكن هذا السند لا ينطبق على ابن القارح في الحقيقة لأن هذا الرجل حسب أبي العلاء رجل فارغ كلامه مزور (راجع رسالته) وعمله معدوم . وإنما هذه الآية تصدق على أبي العلاء فكلامه صدق وعمله صالح.

(176) انظر الغفران ص 238.

فرض عليه العناية بالكلمة الطيبة ، وأبعده عن الكلمة الخبيثة . فكأنه ركب لذته فى لذته . فإذا ابن القارح فى ظاهر الأمر منشغل بالكلمة الطيبة ، متعلق بجمالها ، مهتم بالحقيقة التى تحملها . والواقع الخفى أن أبا العلاء هو الذى ينفرد بالتلذذ بها والتمتع بجمالها ، فكان ابن القارح لا يستطيع أن يفلت من إرادة أبى العلاء ، فإذا به يثير المسائل الأدبية واللغوية والعروضية ، وإذا به يواجه الكلمة الصادقة ، ويقابل بالمعاني السامية التى تحملها.

ولقد رأينا أن نتحدث عن لذة أبى العلاء هذه من خلال العنصرين التاليين ، وهما لذة السؤال ولذة الشعر .

أ- لذة السؤال : إن السؤال من أهم مصادر اللذة عند أبى العلاء ، فهو السبب فى النشاط العقلى ، وهو الوسيلة فى الوصول إلى الحقيقة ، وهو أداة المعرفة لا تضاهيها أداة أخرى . ولقد تنوعت الأسئلة فى رسالة الغفران على أنه يمكن حصرها فى المجالات التالية:

أ-1- أسئلة تهم الغفران : وهى - على تنوعها - لا تخرج عن سؤال كان يكرره ابن القارح وهو قوله " بم غفر لك ؟ " ⁽¹⁷⁷⁾ أو قوله " كيف كانت سلامتك " ⁽¹⁷⁸⁾ أو قوله : " فما بالك فى مغفرة ربك؟ " ⁽¹⁷⁹⁾ وقصد أبى العلاء من هذا السؤال هو التلذذ بالإجابات المختلفة التى يجيب بها المسؤولون ، وهى إجابات تترجم عن الأسباب التى بها دخلوا الجنة

⁽¹⁷⁷⁾ الغفران ص 183 ، 185 ، 215 .

⁽¹⁷⁸⁾ الغفران ص 186 .

⁽¹⁷⁹⁾ الغفران ص 178 .

أو الجحيم . والحقيقة أن الإنس والحيوان الذين رفعهم أبوالعلاء إلى عالمه السماوى هم ذوو مكانة رفيعة فى قلبه بغض النظر عن وجودهم فى النعيم أو فى الجحيم . وإنما الاختلاف سببه أسلوب القص الذى توخاه ، وكذلك إرضاء لابن القارح الذى تحدث فى رسالته عن أهل الجنة وأهل النار . فجاراه أبوالعلاء فى الظاهر .

لقد رفع أبوالعلاء إلى عالمه السماوى من خدموا الكلمة وأخلصوا لها واستعملوها فى الصدق وجنبوها مداخل المين والزور . ولهذا لم يعتبر دينهم أو مذهبهم أو عصرهم ⁽¹⁸⁰⁾ . وإنما هم يشتركون فى قيمة واحدة وهى حب الكلمة الطيبة .

أ-2- أسئلة تهم اللغة : لقد كان أبوالعلاء يحفظ اللغة ، وحفظها حفاظ عليها . فعل بها ما يفعله الأب بابنه ، فحماها من كل مكروه ، وحرسها من كل شر . وهذا ما صرح به فى اللزوميات ⁽¹⁸¹⁾ ونفذه فى رسالة الغفران : فقد ألفيناه يبحث عن دقائقها ، ويكشف عن رقائقها ، ويبعث مواتها ، ويثرى حياتها ، ويجول فى عالمها ، لا يخشى الملل ولا يخاف السآمة ، بل إنه كلما أوغل فى ذلك العالم انفتحت له مجاهل ، حتى انقلبت هذه الرسالة قاموساً حشى دُرراً لغوية . وقد عيب هذا السلوك على

⁽¹⁸⁰⁾ إذا نظرنا فى أهل الجنة وجدنا أن الأعشى جاهلى أدرك الإسلام ، ولم يسلم (الغفران ص 177) وزهير بن أبى سلمى وعبيد بن الأبرص وغيرهما جاهلى خالص (الغفران ص 182) وعدى بن زيد مسيحى (الغفران ص 186) وهكذا . . .

⁽¹⁸¹⁾ انظر مقدمة هذا الديوان ونلاحظ أننا توسعنا فى بحث موقف أبى العلاء من الكذب والصدق فى الشعر وغير ذلك من قضايا النقد فى بحث عنوانه : رؤية أبى العلاء فى الشعر . انظر : حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الرسالة 111 سنة 1995-1996 (الحوالية 16).

أبى العلاء، ولكن أبا العلاء يرى ما لا نرى : فالأدب عنده لذة شاملة
يشارك فيها الحكاية والرواية والمسألة والحشو والاستطراد . . .

وقد وجدنا أبا العلاء يترك الحكاية ليجيب عن سؤال فى اللغة فلقد
كان يتحدث عن عسل الجنة ، فيتذكر قول النمر بن تولب ⁽¹⁸²⁾ فى ذلك :

[من الوافر]

أَلَمْ يَصْحَبْنِي وَهْمٌ مُّجْوَع . : خِيَالُ طَارِقٍ مِنْ أَمِّ حِصْنٍ

لَهَا مَا تَشْتَهَى عَسَلًا مُّصَفًّى . : إِذَا شَاعَتْ وَحَوَارَى بِسَمْنٍ

وهذا يذكره بسؤال خلف الأحمر ⁽¹⁸³⁾ لأصحابه " لو كان موضع أمّ
حصن أمّ حفص ما كان يقول فى البيت الثانى ؟ فسكتوا . فقال حواري
بلمص يعنى القالوذ ⁽¹⁸⁴⁾ .

إلا أن جواب خلف الأحمر لا يفى بالحاجة ، ولا يستوفى المسألة ،
فلا يرتاح إليه أبو العلاء لأن لذته لم تصل إلى ذروتها ، ولهذا يستطرد
متقصياً البحث عن الأجوبة الممكنة لهذا السؤال . فيبحث عنها متتبعاً
حروف المعجم حتى لا يهمل حرفاً من حروفه . وهذا جدول فى الإجابات
الممكنة التى أوردها مع ملاحظة أننا لا نورد التفسيرات التى صحبتها:

⁽¹⁸²⁾ هو النمر بن تولب العكلى (ت نحو 635 / 14) شاعر مخضرم أسلم ودعاً قومه إلى ذلك . انظر عنه
سأزركلى الأعلام 48/8.

⁽¹⁸³⁾ يكتى أبو محرز (ت 796 / 180) أحد رواة الغريب واللغة والشعر تتلمذ عليه أبو نواس ، له مصنفات
انظر عنه كحالة : معجم 4 / 104.

⁽¹⁸⁴⁾ نوع من أنواع الحلوى يسوى من لبّ الحنطة.

الحرف	الجواز	الحرف	الجواز	الحرف	الجواز
ء	- لم جَزْء	د	- لم سَعَد	غ	- لم مَنَعَ
	- بَكَشْء		- بَنَعْدْ		- بَصْبَغْ
	- بَوَزْء	ذ	- لم وَفَدْ	ف	- لم نَخَفْ
	- سَهَنَسْء		- بِشَقْدْ		- بِرَغَفْ
	- يَلَزْء				
ب	- لم حَرَبْ	ر	- لم عَمَرَوْ	ق	- لم فَرَقْ
	- بِصَرَبْ		- بِشَمَرْ		- بِعَرَقْ
ت	- بِكَمَتْ	ز	- لم كَرَزْ	ك	- أم سَبَكَ
	- لم صَمَتْ		- بَلَزْ		- بِرَبَكَ
	- بِحَمَتْ	س	- لم ضَبَسْ		- بِلَبَكَ
ث	- لم شَتْ		- بِكَبَسْ	ل	- لم نَخَلْ
	- بِبَتْ	ش	- لم فَرَشْ		- بِرَخَلْ
ج	- لم لُجْ		- بَوُرَشْ	م	- أم صَرَمْ
	- بِدُجْ	ص			- بِطَرَمْ
		ض	- لم غَرَضْ		
			- بِغَرَضْ		
ح	- لم شَحْ	ط	- أم لَقَطْ	ن	
	- بِمُحْ		- بِأَقَطْ	و	- أم نَوْ
	- بِبُحْ	ظ	- أم حَظْ		- بِجَوْ
	- بِرُحْ		- بِكَظْ	ه	- أم كَرَهْ
	- بِسُحْ	ع	- أم طَلِعْ		- لَوُرَهْ
	- بِجُحْ		- بِخَلِيعْ	ي	- أم سُرِي
خ	- أم دُخْ		- أم فَرَعْ		- بَلُرِي
	- بِمُخْ		- بِصُرْعْ		

ويُنهي أبو العلاء هذا البحث المتقصى بقوله : " وهذا فصل يتسع وإنما عرض في قول نام ، كخيال طريق في المنام " (185). وهذا القول يدل على أن البحث في اللغة مجال لا حدود له ، وأن اللذة التي تنشأ عنه لا يدركها إلا المخلصون للكلمة ، الصادقون في حبها . ونلاحظ أن أبا العلاء أورد هذا " الفصل " في الصفحات الأولى من رسالته ، وكأنا به يريد أن يقول إنه يستطيع أن يتوغل في مجاهل اللغة وأن يغوص في لجتها لولا ما تقتضيه الحكاية . وهو على كل حال لم يهمل هذا الجانب . كيف يهمله وهو مصدر لذة عظيمة ؟

أ-3- أسئلة تهم نسبة الشعر إلى أصحابه : وهي ذات أهمية في الكشف عن اللذة التي كان يغنمها أبو العلاء في التعرف على الشعر والتعرف على أهله.

ولقد كانت هذه الأسئلة شهادة على العصر : فقد عرف القرنان الرابع والخامس ظاهرتي الانتحال وإغفال نسبة الشعر إلى أصحابه . وكان أبو العلاء يألم لهذا الوضع لأنه دليل على انتهاك حرمة الكلمة ، واعتداء على أهلها . وكان يحتج على أصحاب هذا الصنيع المشين احتجاجاً صارماً ، ولا يتوانى في التشهير بهم . وكان لا يألو جهداً في نسبة الشعر إلى أصحابه والإشادة بفضلهم . فهذا ابن القارح يتغنى بشعر لا ينسبه ، فإذا بهاتف يقطع عنه لذته ، ويسأله قائلاً :

(185) الغفران ص ص 154- 164 . ونلاحظ أن أبا العلاء قد استعمل أسلوب : إن قال... قال . . . أو لو قيل . . . قيل . . . أو إذا قال جاز أن يقول كما نلاحظ في هذا الجدول أن حرفي الصاد والنون قد أوردهما خلف الأحمر والنمر بن تولب.

ويقول بعد أن تحققت له لذة الإثشاء :

" أحسنت ، والله ، أحسنت ، لو كنت الماء الرآكد لما أسنت" (213).

ولنابغة بنى جعدة (214) أبيات كان أبو العلاء يحبّ إثشادها ، فقد قل

له على لسان ابن القارح :

" إني لأستحسن قولك : [من المنسرح]

طَيِّبَةُ النَّشْرِ ، وَالْبُدَاهَةِ وَالـ . . . عِلَاتٍ عِنْدَ الرِّقَادِ وَالنَّسِيمِ "

وهى عشرة أبيات فى وصف امرأة وصفاً حقق لذة عالية عند أبى

العلاء ، وقد عبّر عن تلك اللذة بقوله :

" أين طيبُ هذه الموصوفة ، مَنْ طيب من تشاهده من الأتراب

الغُرب ؟

كلا والله ! أين الأهل من الغُرب ؟ وأين فَوْها المذكر من أفواه من

ولب

أيها المنكر ؟ إنها لتفضل على تلك فضل الدرة المختزنة على

الحصاة الملقاة ، والخيرات الملتزمة على الأعراض المتفّاة . "

ولا يترك هذه الأبيات دون أن يعلق عليها زيادة فى التمتع بها (215).

وقد كان أبو العلاء معجباً بقصيدة للمرقش الأكبر (216) ، وعبر عن

(213) الفخران ص ص 186 - 189 .

(214) هو قيس بن عبد الله بن ربيعة الجعدى (ت نحو 670 / 50) شاعر ، صحابى ، له ديوان شعر . انظرو

عنه الزركلى : الأعلام 5 / 207 .

(215) الفخران ص ص 219 - 223 .

(216) هو عوف بن سعد (ت نحو 75 ق هـ / 550) شاعر جاهلى ، ضاع أغلب شعره . انظر عنه

الزركلى : الأعلام 5 / 95 .

ذلك في قوله مخاطباً هذا الشاعر :

إن قوماً من أهل الإسلام كانوا يستزرون بقصيدتك الميمية التي

أولها : [من الرجز]

هل بالديار أن تجيب صمم . : لو كان حياً ناطقاً كلم
وإنها عندي لمن المفردات " (217).

ب-2- الخوض في قضايا العروض : فقد كان أبو العلاء لا يكتفى
بتشاد الشعر ، وإن كان ذلك يحقق له لذة عارمة ، ولكنه يضيف إليها لذة
أخرى فكرية تتمثل في معالجة المسائل العروضية ، فيستفيد من فرصة
تشاد الشعر ليدرس تلك المسائل دراسة تطبيقية.

فالإقواء مثلاً عالجه من خلال بيت لامرئ القيس وهو (218) : [من

البسيط]

جاءت لتصرعني ، فقلت لها : قري

إني امرؤ صرعى عليك حرام

فسأله ابن القارح قائلًا :

" أتقول : حرام فتقوى ؟ أم تقول : حرام ، فتخرجه مخرج حزام

وقطام ؟

وقد كان بعض علماء الدولة الثانية (219) يجعلك لا يجوز الإقواء

عليك.

(217) الغفران ص 256.

(218) هذا البيت من ميمته التي مطلعها :

لمن الديار غشيتها بسحام . : فعمائتين ، فهضب ذي إقدام

(219) يعني الدولة العباسية.

فيقول امرؤ القيس : لا نكرة عندنا في الإقواء . . . " (220)

وأما الزحاف فقد سأل ابن القارح امرؤ القيس :

" أخبرني عن قولك : [من الطويل]

أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُمْ صَالِحٌ . . . وَلَا سَيِّمَا يَوْمَ بَدَارَةٍ جَلْجَلٍ

أَتَشُدُّهُ : لك منهم صالح ، فتزاحف بالكف (221) أم تُشُدُّهُ على

الرواية الأخرى (...).

فيقول امرؤ القيس : أمّا أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف : لك

منهم صالح (222).

ب-3- المبحث النحوي : وقد كان أبو العلاء كثير التّحرى في ضبط

الحركة الإعرابية لكثير من الكلمات بغية تدقيق المعنى . وهذا ما فعله مع

بيت امرؤ القيس الآف الذكر ، فكلمة (يوم) الثانية يمكن أن تُقرأ بحركات

إعرابية مختلفة . قال ابن القارح :

" فأما (يوم) فيجوز فيه النّصب والخفض والرفع : فأما النّصب

فعلى ما يجب للمفعول من الظروف ، والعامل في الظرف - ها هنا - فعل

مضمّر . وأما الرفع فعلى أن تُجعل (ما) كافّةً ، و (ما) الكافّة عند بعض

البصريين نكرة . وإذا كان الأمر كذلك فـ (هو) بعدها مضمرة .

وإذا خفض (يوم) فـ (ما) من الزّيادات ، ويشدّد (سى) ويخفّف :

فأما التشديد فهو اللّغة العالية ، وبعض النّاس يخفّف (...) فيقول امرؤ

(220) الغفران ص 320.

(221) الكفّ نوع من الزّحاف وهو حذف السابع الساكن من الجزء كحذف النّون من : مفعولين ، فيصير مفاعيل.

(222) الغفران ص ص 317 - 318.

القيس : (...) الوجوه فى (يوم) متقاربة ؟ و (سى) تشديدها أحسن وأعرف (223).

ب-4- المنحى الدلالى : وهو منحى اهتم به أبوالعلاء فى تأويل

أبيات من الشعر . من ذلك قول ابن القارح لامرئ القيس :

أخبرنى عن قولك :

كَبَّحَرِ الْمَقَانَةَ الْبَيَاضَ بَصْفَرَةَ

ماذا أردت بالبكر ؟ فقد اختلف المتأولون فى ذلك .

فقالوا : البيضة

وقالوا الدرّة

وقالوا : الروضة

وقالوا : الزهرة

وقالوا : البرنية (...)

فيقول : كل ذلك حسن " (224)

ب-5- المنحى الصرفى : وهو منحى لم يركز عليه أبوالعلاء، إلّا

أنه لم يهمله . فقد وجدناه يعالج مسألة صرفية فى بيت عنتره وهو قوله (225): [من الكامل].

وَلَقَدْ نَزَلْتُ فَلَا تَنْظُنِي غَيْرَهُ . . . مَنِي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

وعلق على لفظة (محب) بقوله :

(223) ن.ح.ص.

(224) الفجران ص 314.

(225) البيت من معلقته.

" لقد وَفَّقْتَ في قولك : المُحِب ، لأنك جئت باللفظ على ما يجب في (أَحَبَّيْتَ) ، وعامة الشعراء يقولون : أَحَبَّيْتُ . فإذا صاروا إلى المفعول قالوا: محبوب " (226).

ثانياً : العمل الصالح : إن العمل الصالح - في نظر أبي العلاء - ثاني مفتاحي دخول الجنة ، فهو يتبع الكلمة الطيبة ، وغالباً ما يقترن بها. وقد كشف عن موقفه هذا بطريقتين :

أما الأولى فهي تتمثل في التصريح ، وإبداء الرأي ، ذلك أن أبا العلاء وضع في ديباجة رسالته (227) أن ابن القارح دخل الجنة بالكلمة فقط (228). وكما عاد إلى هذه المسألة عندما سأل ابن القارح الخطيئة (229) قائلاً : " ما بال قولك (230): [من البسيط] :

مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَغْدَمُ جَوَازِيَهُ . : لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
لَمْ يُغْفَرْ لَكَ لَهُ ؟

فيقول [الخطيئة] : (...) نظمته ولم أعمل فحُرمْتُ الأجر عليه" (231).

(226) الغفران ص ص 325-327 ، ونلاحظ أن أبا العلاء قد توسع فتحدث عن الفعل المضاعف في حالتَي التعدي وللزوم.

(227) راجع الغفران ص ص 139-140 .

(228) راجع الهامش 185 .

(229) هو جروول بن أوس (ت نحو 665 / 45) شاعر مخضرم كان هجاء عنيفاً . لم يكد يسلم من لسانه أحد .

انظر عنه الزركلي : الأعلام 118/2 .

(230) هذا القول من سنيته المشهورة في هجاء الزبرقان ، وسجله فيها عمر بن الخطاب .

(231) الغفران ص ص 307-308 .

أما الطريقة الثانية فهي تتمثل في مجازاة أصحاب الأعمال الصالحة بالجنة وتمتيعهم بنعيمها . وكان ممن نال هذه الخطوة الحوريتان اللتان اختلى بهما ابن القارح ظناً أنهما من " حور الجنان " فقد تبين له بعد أن ورطه أبو العلاء معهما أنهما امرأتان صالحتان عملتا صالحاً في الدنيا ، فنالتا الأجر العظيم في الجنة . أما الأولى وهي " حمدونة " ⁽²³²⁾ ، فقد طلقها زوجها لرائحة كرهها قال : " فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا الغرارة ، وتوفرت على العبادة ، وأكلت من مغزلي ومردني " ⁽²³³⁾ وأي عمل أعظم من الزهد ، والتوفر على العبادة ، والأكل مما تنتج اليد ؟ وأما الثانية فهي " توفيق السوداء " فقد " كانت تخدم في دار العلم ببغداد " أي أنها تخرج الكتب إلى النساخ ⁽²³⁴⁾ .

ولم يكن العمل الصالح حكراً على الإنسان ، وإنما يقوم به الحيوان ، أيضاً إذ وجدنا المعري يدخل في جنته بعضاً منه . من ذلك " الأخنس الذئبال " الذي كشف عن سبب تنعمه بالجنة فقال :

" كنتُ - في محلة الغرور - أرود في بعض الفقار ، فمرّ بي ركب مؤمنون قد كرى ⁽²³⁵⁾ زادهم ، فصرعوني ، واستعانوا بي على السفر ، فعوضني الله - جلت كلمته - بأن أسكنني في الخلود " ⁽²³⁶⁾ .

(232) هذا الاسم مشتق من (ح.م.د) وهذا مما يدل على الرضا بما قدر الله

(233) الغفران ص 287 .

(234) ن.م.ص .

(235) المعروف هو أكرى الشيء : نقص .

(236) الغفران ص 198 .

ومن الحيوان الملتذّ بنعيم الجنة عِلْجٌ وحشى قال موضعاً سبب تلك
اللذة :

" إني صادني صائد بمخلب ، وكان إهابي ⁽²³⁷⁾ له كالسكب ، فباعه
في بعض الأمصار ، وصراه للسانية صار ⁽²³⁸⁾ . فاتخذ منه غرب ⁽²³⁹⁾ ،
شفي بمائه الكرب ، وتطهر بنزيعه الصّالحون . فشملتني بركة من أولئك ،
فدخلتُ الجنة أرزق فيها بغير حساب ⁽²⁴⁰⁾ .

ولم ينسَ أبو العلاء أن يجازي الحيات على أعمالهن الصالحة فقد
خصهن بروضة مونة ، ومكن بعضهن من توضيح سبب دخولهن . فهذه
الحية " ذات الصفا " ⁽²⁴¹⁾ أدخلها أبو العلاء هذه الروضة لأنها كانت وفيّة فقد
" كانت تصنع (...) الجميل " إلى " صاحب ماوفى " فلما ثمر بوّدها ماله ،
وأمل أن يجتذب آماله (...) أكبّ على فأس مغلّة ، يحذر بها للآملة (...)
وهم أن ينتقم منها بأخرة (...) فضربها ضربة (...) إلا أنها " وقّيت ضربة
فأسه " ⁽²⁴²⁾ .

وتلك حية لم تضع وقتها فيما لا ينفع ، وإنما اجتهدت في حفظ
القرآن عندما كان يتلوه الحسن البصري ⁽²⁴³⁾ واهتمت بالقراءات ،

⁽²³⁷⁾ هو الجلد .

⁽²³⁸⁾ صرى الشيء قطعه .

⁽²³⁹⁾ هو أعلى الماء ، غارب الماء : أعلى موجه .

⁽²⁴⁰⁾ الغفران ص 198 .

⁽²⁴¹⁾ هي حية حكى قصتها للناطقة ، انظر الغفران ص 366 .

⁽²⁴²⁾ الغفران ص ص 364 - 365 .

⁽²⁴³⁾ هو أبو سعيد (642/21 - 728/110) كان إمام البصرة وعالماً فقيهاً فصيحاً ، عرف بالزهد . انظر

عنه الزركلي : الأعلام 2/ 226 .

وتوسعت فى رواية الشعر ⁽²⁴⁴⁾ فكانت لها لذة العلم ولذة الجزاء.

فالعَمَل الصالح - إن - هو عمل يعود بالنفع على البشرية ، وهو نوع من الإيثار ، ونهج - فى الحياة - مستقيم ، لا يكون الجزاء عليه إلا نعيم الجنة . إلا أن أصحاب الأعمال الصالحة فى الجنة أقل من أصحاب الكلمة الطيبة فما هو سبب ذلك؟

إن شخصية أبى العلاء هى السبب فهو أديب قبل كل شئ ، يعشق الكلمة قبل أن يتعلق بالعمل ، ويشده سحر البيان قبل أن تحركه نشوة الفعل. إلا أن ذلك لا يعنى أن الكلمة أفضل عنده فهو يعتقد أن " الأعمال الصالحة لها وقور " ⁽²⁴⁵⁾.

II - الأكم :

الأكم هو الإحساس بالانقباض ، والضيق ، وانحباس النفس فى أقطارها ، فلا تشيع ، ولا تنطلق . وقد يؤدى هذا الشعور إلى حالة انكسار واكتئاب . والأكم حالة شعورية يدركها الإنسان ، أو لا يدركها حسب الحالة التى هو عليها ، فقد يكون واعياً بها ملماً بأسبابها ، وقد يكون فى غفلة عنها . وما يعيننا - فى هذه الدراسة - تتبع إحساس أبى العلاء بالأكم وكيف عبر عنه.

والأكم - فى رسالة الغفران - شعور مُداخل للذة ، ممزوج بها، مُواز لها ، لا يفارقها . فهذا الأسلوب المركب الذى توخاه الكاتب يجعل من الصعب ضبط حدود الأكم وحدود اللذة ، أو حد الشقاء والنعيم أو حد العقاب

⁽²⁴⁴⁾ الغفران ص ص 367 - 370.

⁽²⁴⁵⁾ الغفران ص 365.

والثواب . ومما زاد فى تعقيد الأسلوب أن الكاتب صبغه بالسخرية فنجم عن ذلك صعوبة أخرى هى صعوبة الحد بين الجد والهزل . ولكن أى هزل نتحدث عنه ؟ أن أبا العلاء لا يهزل . فحياته جد ، كل الجد ! وأدبه جد . إلا أن الأمر يتعلق بمحاولة التعرف على الحد الفاصل بين مجالين من الحضور فى الرسالة : هما المجال الذى يتكلم فيه ابن القارح ، فيسكت أبو العلاء ، والمجال الذى يتكلم فيه أبو العلاء ، فيسكت ابن القارح . فما هو الحد بينهما ؟

كل ذلك لا يمنعنا من محاولة التعرف على حالة الشعور بالآلم شعوراً حسياً وشعوراً معنوياً .

1- الألم الحسى :

ونتحدث عنه من خلال ثلاثة مواطن هى المحشر والجنة والجحيم .
أ- فى المحشر : لئن حشا أبو العلاء الحديث عن حساب ابن القارح ضمن حديثه عن لاذئ الجنة ، فإن ذلك مجرد أسلوب توخاه بغية كسر خط الحكاية المسترسل ، وإنما المنطقى أن الحساب يكون قبل الجزاء . ولئن ضمن له النعيم حسب " صك التوبة " الذى منحه إياه فإنه لم يسمح له بدخول الجنة قبل أن يحين دوره ، ويمرّ بمراحل الحساب التى يمرّ بها سائر البشر .

لقد مر ابن القارح - فى الحشر - بظروف عصيبة وواجهته متاعب نحاول أن نرصد ما نشأ عنها من ألم .

أ-1- ألم الانتظار : عندما نهض ابن القارح من القبر وجد نفسه مطالباً بالانتظار حتى يأتى دوره فى الحساب . ولكنه رجل لم يتعود الانتظار فى دنياه إذ كانت حوائجه مقضية . وليس الانتظار - وحده - ثقيلاً ، وإنما

ظروفه قاسية لا يطيقها ، فقد تملكه شعور بالاختناق بسبب الظما والعرق :
أما الظما فهو ناشئ عن حرارة يوم الحشر العالية . ولم يكن ابن
القارح ألف لفح الحرارة ولهيب اللقيظ ولم يتعود بدنه على غير حياة
القصور ووارف الظل.

وأما العرق فهو ناتج عن تصبب العرق ، وهو شعور حاد جعل ابن
القارح يحس بالاختناق . وقد وصف هذه الحالة بقوله :

" لما نهضت انتفض من الريم ⁽²⁴⁶⁾، وحضرت حرصات القيلم (...)،
ذكرت الآية " تعرج الملائكة و للروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف
سنة * فاصبر صبرا جميلا ⁽²⁴⁷⁾ فطال على الأمد، واشتد الظما والومد -
والومد ضدة الحر وسكون الريح - (...) وأنا رجل مهياف - أى سريع
العطش - فافتكرت فرأيت أمرا لا قيام لمثلئى به (...) . فلما أقمت فى
الموقف زهاء شهر أو شهرين ، وخفت من العرق فى العرق زينت لى
النفس ... " ⁽²⁴⁸⁾.

أ-2- ألم البحث عن شفيح : إن شعور ابن القارح بالخوف من
الاختناق قد دفعه إلى البحث عن حل لتلك المحنة . ولم يكن له باليد حيلة ،
فتفتق خياله على التوصل بالمدح لتجاوزها ، ورأى أن يمدح أصحاب النفوذ
على أبواب الجنة أو من يمكن أن يتوسطوا له فى الدخول ، فمدح رضوان

⁽²⁴⁶⁾ هو القبر .

⁽²⁴⁷⁾ سورة البقرة الآية 281.

⁽²⁴⁸⁾ الغفران ص ص 248 - 249.

وزفر وحمزة (249).

أما رضوان فقد رده ردا عنيفا قائلا له : " إنك لغيبين الرأى! (250)
أتأمل أن آذن لك بغير إذن من رب العزة ؟ هيهات ! هيهات ! " (251). أما
زفر فقد سخر منه سخرية مرة في قوله " لا أشعر بالذى حممت - أى
قصدت - وأحسب هذا الذى تجبئنى به قرآن إبليس المارد ، ولا ينفق على
الملائكة ... " (252) وأما حمزة فقد نهده نهرا قاسيا فقال له " ويحك ! أفى
مثل هذا الموطن تجبئنى بالمديح ؟ أما سمعت الآية " لكل امرئ منهم يومئذ
شأن يغنيه " (253). (254)

هكذا تضيع جهود ابن القارح فى البحث عن الشفيح للخلاص من
ألم الاختناق، ولكنها جهود نشأت عنها آلام أخرى : هى ألم نظم القصائد
فى ظروف قاسية ، وألم المضائكة والمزاحمة ، وألم الرد والسخرية
والتقريع العنيف.

أ-3- ألم ضياع صك التوبة : هذه حالة أخرى من أحوال ألم ابن
القارح ، بل هى حالة تدل على درجة عالية من الألم إذ أن ضياع

(249) رضوان وزفر : هما خازنان من خزنة الجنة ، وحمزة هو حمزة بن عبدالمطلب الذى قتل فى غزوة
أحد سنة ثلاث للهجرة.

(250) غيبين الرأى : ضعيفه.

(251) الغفران ص ص 250 - 251.

(252) الغفران ص ص 251 - 252.

(253) سورة عبس ، الآية 37.

(254) الغفران ص ص 252 - 257.

الصك⁽²⁵⁵⁾ ينشأ عنه وجوب المرور بالحساب مثل سائر البشر ، كما يصبح الدخول إلى الجنة غير مؤكد . وهذا ابن القارح يصف لنا تلك الحالة فى قوله :

" سقط منى الكتاب الذى فيه ذكر التوبة ، فرجعت أطلبه ، فما وجدته ، فأظهرت الوله والجزع ، فقال أمير المؤمنين⁽²⁵⁶⁾: لا عليك ، ألك شاهد بالتوبة ؟

فقلت : نعم ، قاضى حلب وعدولها

فقال : بمن يعرف الرجل ؟

فأقول : بعبد المنعم بن عبدالكريم⁽²⁵⁷⁾ قاضى حلب (...) هل معك علم من توبة على بن منصور بن طالب الحلبي الأديب ؟ فلم يجبه أحد . فأخذنى الهلع والقل - أى الرعدة - ثم هتف الثانية : فلم يجبه مجيب ، فليح بى عند ذلك - أى صرعت إلى الأرض - ثم نادى الثالثة فأجابه قائل يقول نعم ! (...) فعندها نهضت ، وقد أخذت الرمق⁽²⁵⁸⁾.

ولئن ساعد الإمام على ابن القارح فى إثبات توبته من جديد ، فإنه رفض أن يتوسط له فى دخول الجنة ، بل على العكس صد عنه صدا قبيحا، قال ابن القارح واصفا ذلك :

(255) ضيع ابن القارح صكه عندما تجرد للدفاع عن أبى على الفارسى وحمايته ممن ينعته فى قضايا النحو. انظر الغفران ص ص 254-256.

(256) هو على بن أبى طالب وكان ابن القارح اتصل به بواسطة حمزة . انظر الغفران ص 254.

(257) هو قاضى حلب فى سنة 420. انظر ابن العديم : تاريخ حلب ط. دمشق 1951، 232/1.

(258) الغفران ص 256.

" أعرض عني ، وقال : إنك لتروم حددا (259) ممتنعا ! ولك أسوة بولد أبيك آدم " (260).

أ-4- ألم الشفاعة : لم يذعن ابن القارح للأمر الواقع ، ولم ينتهر. فقد كان إصراره على الخروج من هذه المحنة قويا . كيف لا ، وهو يكاد يختنق ، ولم يعد يتمالك من الهلع والخوف والإعياء ؟ وقد استطاع أن يجد جماعة من أهل البيت (261) تقربه من فاطمة الزهراء (262). قال ابن القارح موضحا ذلك :

" قالت تلك الجماعة التي سألت : هذا ولي من أوليائنا ، قد صحت توبته ، ولا ريب أنه من أهل الجنة ، وقد توسل بنا إليك ، صلى الله عليك ، في أن يراح من أهوال الموقف ، ويصير إلى الجنة ، فيتعجل الفوز . فقالت لأخيها إبراهيم (263) صلى الله عليه : دونك الرجل . فقال لي : تعلق بركابي .

وجعلت تلك الخيل تتخلل الناس ، وتتكشف لها الأمم والأجيال . فلما عظم الزحام طارت في الهواء ، وأنا متعلق بالركاب . فوقفت عند محمد ، صلى الله عليه وسلم . فقال : من هذا الأتأوى ؟ (264). أي الغريب

(259) هو المملوع الذي لا يحل فعله.

(260) للغفران ص 257.

(261) فيهم علي بن الحسين (ت 94) وإبناء محمد (ت 118) وزيد (ت 126) وغيرهم.

(262) هي بنت الرسول - ص - وزوج الإمام علي ، وأم الحسن والحسين وزينب.

(263) هو أحد أبناء الرسول - ص - الذين ماتوا صغارا .

(264) هو الغريب ، وأصله يطلق على السيل لا يعرف مأناه .

فقلت له : هذا رجل سأل فيه فلان وفلان (...)

فقال : حتى ينظر في عمله

فسأل عن عملي فوجد في الديوان الأعظم وقد ختم بالتوبة ، فشفع لي ، فأذن لي في الدخول " (265).

هذه الشفاعة لم تحصل إلا بعد تعب مرهق وجهد أليم ، ذلك أن ابن القارح وجد نفسه يواجه صعوبة التعلق بركاب الخيل ، وهو الشيخ الظمان ، بل إنه وجد نفسه نكرة لا قيمة له ، فلا بد من النظر في سجل أعماله ، وعلى أية حال فإن هذه الشفاعة هي - عنده - بداية الانفراج وإذن بالخلاص من الألم ، رغم ما فيها من ذل ومهانة. إلا أن أبا العلاء - على العكس من ابن القارح - لم يقبل باختزال المراحل ، فلا بد الآن من عبور الصراط ، وهذا امتحان عسير.

أ-5- ألم عبور الصراط : إن عبور الصراط - في المعتقد الإسلامي - من علامات النعيم أو الشقاء. فمن جازه سريعاً فهو من أصحاب اللذة ، ومن تعثر واضطرب فهو من أهل الألم . وقد استفاد أبو العلاء من هذا المعتقد وصاغ منه مشهداً يكشف عن استحقاق ابن القارح لأشد أنواع الألم لأتانيته المفرطة. فقد كان يريد أن يدخل الجنة قبل غيره ، فعليه الآن أن يعبر الصراط وهو أول عابريه . وهذا وصف المشهد على لسان ابن القارح :

(265) الففران ص ص 259 - 260.

" فلما خلصت من تلك الطموش ⁽²⁶⁶⁾ قيل لى : هذا الصراط فاعبر عليه.

فوجدته خاليا لا عريب عنده ، فبلوت نفسى فى العبور ، فوجدتسى لا استمسك .

فقلت الزهراء - صلى الله عليها - لجارية من جواريتها : يا فلاتة أجزيه .

فجعلت تمارسنى ، وأنا أتساقط عن يمين وشمال ،
فقلت : يا هذه إن أردت سلامتى فاستعملى معى قول القائل فى الدار العاجلة : [من الرمل المجزوء]

ست إن أعياك أمرى .: فاحملينى زفقونه
فقلت : وما زفقونة ؟

قلت : أن يطرح الإنسان يديه على كتفى الآخر ، ويمسك الحامل بيديه ، ويحمله ويطنه إلى ظهره (...).
فتحملنى ، وتجاوز كالبرق الخاطف " ⁽²⁶⁷⁾.

وهكذا لم يجتز ابن القارح الصراط وإنما وجد من يحمله ، وذلك دليل على أنه ليس أهلا للذة النعيم ، وإنما هو جدير بالآلم المقيم. وهو أحق بالآلم لخبثه ففعله مع الجارية ينم على رعونته وسوء سلوكه.

أ-6- ألم الدخول : لم يكف أبوالعلاء عن زرع العقبات فى طريق الجنة فكان ابن القارح كلما تجاوز عقبة برزت له عقبة كأداء ، وكلما ظن

⁽²⁶⁶⁾ مفردة : طمش وهو الناس.

⁽²⁶⁷⁾ الخفران ص ص 260 - 261.

الخلاص لاحقه اليأس. فتلاحظ أن أبا العلاء يكتف ألم ابن القارح تكثيفا تصاعديا . فكلما تقدم بنا خط الأحداث ضاق مجال إمكانيات الخلاص عليه. وآخر طريقة ابتكرها أبو العلاء - إمعانا في إيلاسه - هو طلب " الجواز " . وكان هذا المأزق الأخير أشد المآزق إيلاسا وتعظيما . فقد تبين لابن القارح أنه لا يحمل وثيقة تسمح له بالدخول . قال موضحا ذلك :

لما صرت إلى باب الجنة ، قال لي رضوان ، هل معك من جواز ؟
فقلت : لا .

فقال : لا سبيل لك إلى الدخول إلا به .
فبطلت بالأمر (268).

وعلى باب الجنة - من داخل - شجرة صفصاف : فقلت : اعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع إلى الموقف فأخذ عليه جواز .
فقال : لا أخرج شيئا من الجنة إلا بإذن من العلى الأعلى ، تقدس وتبارك.

فلما دجرت (269) بالنازلة قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون! (...) (270).

لقد آل الأمر بابن القارح إلى طريق مسدود ، ولم يبق له إلا أن يعود القهقري، فيسلك السلوك الذي سلك لعله يحقق الخلاص من الانتظار وآلامه . وهذه النهاية هي ما يتمناه أبو العلاء لهذا الشيخ الذي خالف

(268) بطلت بالأمر أى تحيرت فلم أدر ما أفعل.

(269) بمعنى حار وسكر.

(270) الغفران ص ص 261 - 262.

النواميس الإلهية ، والحرف عن القوانين العقلية ، فجمع بين النفاق حين مدح ، والانتهازية حين خاطب فاطمة ، والوصولية حين انتسب إلى الشيعة. وكان الأولى بهذا الشيخ أن يتجنب كل ذلك، ويتذكر أن الجزاء بنعيم الجنة تؤدي إليه ثلاثة أسباب : هي الكلمة الطيبة والعمل الصالح ومرضاة الله على عبده. وقد رأينا أن ابن القارح سجله خال من الكلمة الطيبة وديوانه فارغ من العمل الصالح ، ورأيناه في آخر الأمر يتوسل بالبشر ، ويستشفعهم، وينسى رب البشر، بل إننا ألفيناه لا يصغى لدعوة رضوان عندما قال له : أتأمل أن آئن لك بغير إذن من رب العزة ؟ هيهات! هيهات⁽²⁷¹⁾.

إلا أن هذه النهاية الأكيدة التي رضيها أبوالعلاء لهذا الشيخ لا تتسجم مع روح القصة لأنه لابد من دخوله الجنة . وهذا ما اقتضى تدخل إبراهيم من جديد إذ التفت فرأى الشيخ قد تخلف عنه، فجنبه " جنبه " حصله بها في الجنة⁽²⁷²⁾ !

ولم يكن أبوالعلاء رحيمًا بلبن القارح حتى في الجنة ، ذلك أنه جعله يتذكر قصة مروره بالمحشر وهو في غمرة النعيم . وما ذلك - فسي نظرنا - إلا تنكيذا عليه وتنقيصا ، بل إن أبا العلاء خصه برواية خبر ألمه في المحشر رواية مفصلة ، على عكس ما فعل بالآخرين فقد اكتفى بالإشارة - مجرد الإشارة - إلى حسابهم : فهذا الأعشى - مثلا - يقول

(271) الغفران ص 251.

(272) الغفران ص 262، وانظر مخطوطي : محاولات الخلاص من الألم ، ودرجات الألم.

"من الله على بعدما صرت من جهنم على شفير" (273)، وهذا تميم بن أبي (274) يقول "إني حوسبت حسابا شديدا" (275) وهذا عمرو بن أحمر (276) يعترف قائلا "لم تترك في أهوال القيامة غيرا (277) للإشهاد (278) وهذا الخليل يقر " أن عبور الصراط ينفذ الخلد مما استودع" (279).

ولم نر شدة في الحساب إلا مع أهل الحكم والسلطان فكان "الثوس" (280) الجبابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم ، والنسوة ذوات التيجاني يصرن (281) بالأسنة من الوقود ، فتأخذ في فروعهن وأجسادهن ، فيصحن : هل من فداء ؟ هل من عذر يقام ؟ والثباب أولاد الأكاسرة يتضاغون (282) في سلاسل النار ، ويقولون : نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الفاتية ، ولقد كانت لنا - إلى الناس - صنائع وأياد، فلا فادي ولا معين ! ! " (283) فهذا عقاب دون حساب، وهو دليل على المآل .

(273) الغفران ص 177.

(274) هو ابن مقبل ، وقد تم التعريف به (راجع أعلاه الحاشية رقم 135).

(275) الغفران ص 247.

(276) هو أبو الخطاب (ت نحو 65 / 685) شاعر مخضرم أسلم وغزا مغازى في الروم . له ديوان شعر.

انظر عنه الزركلي : الأعلام 5، 72.

(277) يضم الغين وتضعيف الباء أو تخفيفها) : البقية من الشيء.

(278) الغفران ص 240.

(279) الغفران ص 280.

(280) مفردة أشوس ، وهو الشديد الجري في القتال ، أو الذي ينظر بمؤخر عينه تكبرا.

(281) من صار الشيء وأصاره أماله.

(282) من تضايغ : تضايح ، والضغو والضغاء : صباح السنور والثعلب والذئب والكلب ، وفي الصحاح :

صوت كل ذليل مقهور .

(283) الغفران ص 247 ، ونلاحظ أن هذه الفقرة هي الفقرة الوحيدة التي كشف فيها أبو العلاء موقفه من

رجال السياسة ومن المصير الذي يراه لهم.

ب- فى الجنة : الجنة خلو من الالم الحسى ، إذ أن لها العلاء قد استبعد منها كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إليه . وقد نبه إلى هذه الناحية من رسالته بطريقتين اثنتين :

أما الأولى فتتمثل فى التصريح باتعدام الالم فى الجنة ، وهذا أمر طبيعى ذلك أن الجنة مجال النعم الوافرة واللذات المتنوعة . إلا أن أبا العلاء قد أوجد فيها أعمالا دنيوية أتاها ابن القارح أو غيره . من تلك الأعمال الذبح والافتراس . أما الذبح فإنه يتم ولا ينشأ عنه ألم . فهذا ابن القارح أحضر عددا كبيرا من أنواع الحيوان " لتعبط، فارفع رغاء العكر ، ويعار المعز ، وثؤاج الضأن ، وصياح الديكة ، لعيان المدينة . وذلك كله - بحمد الله - لا ألم فيه . وإنما هو جد مثل اللعب"⁽²⁸⁴⁾ وأما الافتراس فلا ألم فيه أيضا بل إن الالم يتحول إلى لذة يشعر بها الحيوان المفترس ، فهذا أسد الجنة يفترس " ما شاء الله ، فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب : ولكن تجد من اللذة كما [يجد]"⁽²⁸⁵⁾.

وأما الثانية فتتجسم فى نفى النقائص عن مخلوقات الجنة بشرا وحيوانا ، فكلها مخلوقات سوية ، وكلها محصنة ضد العاهات والإعاقات والأمراض . وينسى ابن القارح هذه الخصيصة فى الجنة فيرفض القصخوفا من السقوط وانكسار بعض أعضائه ، فينهره عدى بن زيد قائلا : "ويحك ! أما علمت أن الجنة لا يرهب لديها السقم ، ولا تنزل بسكنها

(284) الغفران ص 271.

(285) الغفران ص 305.

النقم!"⁽²⁸⁶⁾.

والجنة عموما لا يلحق أهلها " تلف " ⁽²⁸⁷⁾ ولا " مشقة " ⁽²⁸⁸⁾ ولا
" كلفة " ⁽²⁸⁹⁾ وإنما هي حياة نعيم ولذة وراحة .

ج- في الجحيم : إن الألم في الجحيم قليل الحديث عنه . وما ذلك
بتقصير من أبى العلاء ، وإنما هو موقف اتخذته وأسلوب توخاه . وهذا
يعود إلى فلسفته في الحياة؛ فالحديث عن ألم الناس - عنده - نوع من
التشفى ، وهو يأبى ذلك . ثم إن الذين حشرهم في النار إنما هم - من
جانب أو من آخر - يمثلون بعض آرائه وأفكاره ورؤاه. إلا أن هذا
التقصير المقصود لم يمنعه من الإشارات الذكية والإلماعات الثرية إلى
بعض مظاهر الألم .

فهذا إبليس " يضطرب في الأغلال والسلاسل . ومقامع الحديد
تأخذه من أيدي الزبانية " ⁽²⁹⁰⁾.

وهذا بشار " ⁽²⁹¹⁾ في أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر
إلى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلايب من نار" ⁽²⁹²⁾.

⁽²⁸⁶⁾الغفران ص 197.

⁽²⁸⁷⁾الغفران ص 198.

⁽²⁸⁸⁾الغفران ص 206.

⁽²⁸⁹⁾ الغفران ص 206، 268.

⁽²⁹⁰⁾ الغفران ص 309.

⁽²⁹¹⁾ هو بشار بن برد (714 / 95 - 784 / 167) شاعر من المولدين كان ضريرا نشأ في البصرة وقدم

بغداد . انظر عنه الزركلى : الأعلام 2 / 52.

⁽²⁹²⁾ الغفران ص 310.

وهذا عنبرة "ملتد في السعير" (293)

وهذا الأخطل التغلبى " (294) يتضور (295)، (296)

وهذا المرقش الأكبر (297) " في أطباق العذاب " (298)

فيتبين من خلال ما تقدم أن وصف الأكم - فى الجحيم - باهت لا يكشف عن عنابة أبى العلاء به إذ اكتفى بذكر بعض أدواته مثل الكلاب والسلاسل والمقارع ، بل إننا وجدناه يشير إلى عذاب أربعة شعراء - وهم الذين ذكرنا - من خمسة عشر شاعرا ألقاهم فى الجحيم . وهذا مما يدعم وجهة نظرنا : وهى أن أبى العلاء لا يميل إلى وصف ألم الآخرين . ولقد وجدنا ما يؤكد هذا الرأى فالشئفرى (299) - رغم قبوعه فى النار - كان " قليل التشكى والتللم لما هو فيه " (300).

2- الأكم المعنوى : إن هذا النوع من الأكم أخفى فى رسالة الغفران من الأكم الحسى ، فقد سلكه أبو العلاء ضمن سلك اللحمية ، وبطنه فى العلاقة التى ربطها بينه وبين ابن القارح . وجعله ينساب عبر الخطاب

(293) للغفران ص 322.

(294) هو غياث بن غوث (640/19 - 708 / 90) شاعر ، مدح ملوك بنى أمية كان له هجاء مع الفرزدق

والأخطل . انظر عنه الزركلى : الأعلام 5 / 123 .

(295) من تضور : تلوى من وجع ضرب أو جوع .

(296) للغفران ص 345 .

(297) راجع للتصريف به أعلاه حاشية 226 .

(298) للغفران ص 355 .

(299) هو عمرو بن مالك الأزدي (ت نحو 70 هـ / 625) شاعر صعلوك . انظر عنه الزركلى : الأعلام

5 / 85 .

(300) للغفران ص 358 .

والسلوك والموقف والحركة . فجاء الحديث عنه شائعا فى الرسالة وملابسا للذة.

ولقد تبين لنا أن الأكم المعنوى ناشئ - بصفة عامة - عن لذة ابن القارح ، أى أنه متصل باللذة الحسية التى توفرت - فى الجنة - بتوفر النعم الكثيرة . وتبين لنا أيضا أن هذا الأكم اتخذ مظهرين اثنين هما الحرمان والسخرية .

أما الحرمان فهو موقف اتخذه أبو العلاء إزاء ابن القارح . فقد وفر له ما كان يشتهى من لذائذ الخلود ويسر له تحقيقها بلا كلفة ولا مشقة ، فهو يكتفى بالإشارة السريعة ، والخاطر العابر ، والنية الخفية . إلا أن أبا العلاء كان يتدخل - فى كل مناسبة - ليمنع تحقيق هذه اللذة تحقيقا كاملا . وهذا ما عبرنا عنه بالحرمان.

لقد اكتشفنا أن ابن القارح لم يشبع لذة واحدة . وإنما لذته ناقصة فى جميع الأحوال . فإذا أمعنا النظر فى ذروة اللذة التى يصيبها لوجدنا أنها ذروة " منعمة " . وما لم تصل اللذة إلى هذه الذروة فهى لذة ألمها ممض حارق : إنه الأكم المحض . وأنها لذة شر من الأكم لأنه لم يقع إشباعها . فلنحاول التعرف على هذا الحرمان من خلال شواهد متعددة.

الشاهد الأول يخص لذة القنص . فقد صوب ابن القارح رمحه القصير " لأخنس ذيال (...) فإذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيد ظفر قال : أمسك - رحمك الله - فإنى لست من وحش الجنة التى أنشأها الله - سبحانه - ولم تكن فى الدار الزائلة " ⁽³⁰¹⁾ وقد حصل لابن القارح مع عـ

(301) الغفران ص 198 .

وحشى ما حصل له مع الأخنس " فإذا صار الخرص⁽³⁰²⁾ منه بقدر أنملة
قال: أمسك يا عبدالله ! فإن الله أنعم على، ورفع عنى البؤس " ⁽³⁰³⁾.

نلاحظ فى المشهدين أن أبا العلاء قد استوفى ظروف اللذة
وأسبابها، وكانت تصل إلى ذروتها بتحقيق القنص ، فلم يبق بين ابن
القارح وتحقيق لذته إلا " قيد ظفر " و " قدر أنملة " . إلا أن فعل " أمسك "
فى المشهدين يؤدى وظيفة المانع لتحقيق اللذة والقاطع للوصول إلى ذروتها
فينشأ الحرمان.

الشاهد الثانى يتعلق بلذة الشراب . فقد كان ابن القارح يحب شراب
الفقاع " فيجرى الله - بقدرته - أنهارا من فقاع " ⁽³⁰⁴⁾ ويحضر السقا
وهم " الولدان المخلدون يحملون السلال إلى أهل ذلك المجلس " وتهيأت
أسباب تحقيق اللذة . إلا أن أبا العلاء يتدخل ليسأل هذا السؤال " ما تسمى
هذه السلال بالعربية ؟ " ⁽³⁰⁵⁾ وهو سؤال قاطع لذة ابن القارح ، محدث
لألم الحرمان ، خصوصا بعد أن تركز اهتمام الحاضرين على البحث فى
الإجابة عن هذا السؤال.

الشاهد الثالث يتصل باللذة الجنسية . فقد رأينا أن ابن القارح
اختلى بحوريتين من حور الجنة . وبعد المغازلة والإثارة أقبل " على كل
واحدة منهما يترشف رضاها. وكان من المتوقع أن تبادله الحوريتان

(302) مثلثة الخاء : نصف السنان الأعلى ، وقيل هو الرمح.

(303) الغفران ص 198.

(304) الغفران ص 280.

(305) ن.م.ص.

المتعة ، ولكن حدث العكس إذ " تستغرب إحداهما ضحكا" (306)، هذا الضحك هو أداة لقطع اللذة واستبعاد لذروتها . وهو علامة على تغيير مجرى الأحداث والابتعاد عن تحقيق الوصال . ذلك أن لحظة النشوة تقتضى الانصهار فيها والإفلات من قبضة الظرفية من زمان ومكان ، وهوية وانتماء، وسؤال وجواب. أما الضحك - فى هذه الحالة - فإنه يمثل لحظة توتر وانحراف : لقد أرادت الجارية أن تحرم ابن القارح من لذة ليس هو بها جديرا . وهنا يتنزل السؤال : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ " إنه سؤال ليس الغاية منه التعريف بالهوية فحسب وإنما هو - أيضا - نفسى لكل إمكانية الوصال، بل وتغيير منه إذ الحورية المتغزل بها كانت " من أقبج نساء حلب " وذات رائحة كريهة !

ومثل هذا الموقف وجدناه فى لقاء ابن القارح بتلك الحبة التى ترقبته ورلودته (307) عن نفسه ، فإنه " يذعر منها (...) ويذهب مهرولا فى الجنة ويقول فى نفسه : كيف يركن إلى حبة شرفها السم . ولها بالفتنة هم؟ " حتى إذا ضيقت عليه الخناق بإغرائه قال : " وهو يسمع خطابها الرائق : لقد ضيق الله على مرأشف الحور الحسان ، إن رضيت بترشف هذه الحبة ! " (308). هكذا يؤول الأمر بابن القارح إلى الخوف من تحقيق اللذة والدعوة على نفسه بالحرمان منها حرمانا دائما.

(306) الغفران ص 286.

(307) راجع أعلاه : لذة الحبة.

(308) الغفران ص ص 371 - 372.

هذه الشواهد التي ذكرنا تكشف لنا عن موقف أبي العلاء من ابن القارح : إنه اختار له الحرمان الملازم ، فقد جعل قدره ومصيره في الجنة قدر المحروم ومصير الملهوف . فهو يجرى وراء الذات ، ولكنه على ظمإ دائم ، وهو يعد المآذب ، ويجمع لها الناس ، فيطعمون ولا يطعم ، ويشربون ولا يشرب . ويبقى على جوعه وظمئه ، ويستمر حرمانه . بل إن أبا العلاء يحمله أعباء لذته المعنوية: لذة الشعر ولذة البحث فيه . وذلك هو الألم ، أقسى الألم . وذلك هو الشقاء أقصى الشقاء.

ونذهب إلى أن أبا العلاء قدر لابن القارح ألما " سرمدًا " ، فقد انتهى المآل بهذا الشيخ هذه النهاية التي وصفها بقوله :

ويتكى على مفروش من السندس ، ويأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفروش ، فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة (...) ، ويكون البارئ فيه حلقة من الذهب تطيف به كل من الأشرار⁽³⁰⁹⁾ حتى يأخذ كل واحد من الغلمان ، وكل واحدة من الجوارى المشبهة بالجمان ، واحدة من تلك الحلق . فيحمل على تلك الحال إلى محله المشيد بدار الخلود (...) وتناديه الثمرات من كل أوب ، وهو مستلق على الظهر : هل لك يا أبا الحسن ؟ هل لك ؟ فإذا أراد عنقودا أو غيره ، انقضب - من الشجرة - بمشيئة الله ، وحملته القدرة إلى ما فيه . . " (310).

(309) مفردة شرى (بفتحين) : الناحية

(310) انظر ص 172، 176، 181، 184، 186، 189، 191، 195، 197، 207، 208، 215، 218،

243، 245، 262، 292، ولاحظ أن أبا العلاء لم يورد صفة الشيخ في حديثه عن المحشر .

هذه الحالة التى آل إليها ابن القارح هى - فى الظاهر - نعيم، وفى الباطن شقاء ، ويكفى أن نتصور هيئة هذا الشيخ : أعضاء مفلوجة ، ولسان مشلول ، وهو كالوليد محمول على السرير ، لا يبدى حراكا بل هو " مستلق على الظهر " فى وضع الفاقد للصلابة والقوة . وهذه الحالة دائمة ، لا يمكن أن تتغير . وهذه الثمرات التى تنقضب وتحمل إلى فيه إنما هى وسيلة الإبقاء على عذابه وأداة لاستمرار ألمه.

وأما السخرية فهى أداة أخرى من أدوات إيلاء ابن القارح وتعذيبه. ولا نقصد بها - فى هذا السياق - الأساليب الفنية التى توخاها أبو العلاء لتحقيق جمال النص ومتعة القراءة . وكأن المعرى يعنى فى إيلاء بطله . ولكن هذا لا يحس . وعدم إحساسه لا يحرمنا من تقطع للنص وتوقف الحركة . فأنه لا يعنى بمواقف السخرية منه كان يستمر فى الوقوع فى الأخطاء وارتكاب الهنات وقد وجدنا أن الكاتب استعمل أداتين لتحقيق هذا الهدف وهما الموقف والكلمة ، أو الفعل والقول.

ويتمثل الموقف فى توريث ابن القارح فى تناقضات أو مفارقات دون أن ينتبه إليها أو يحس بخطورتها . والحقيقة أنه يمكن تلخيص هذه التناقضات فى قاعدة واحدة لها فرعان: الأول أن ابن القارح: " شيخ" (311) جليل (312) أديب (313). والثانى أنه يأتى أفعالا نافهة وحقيرة ولئيمة . وينشأ عن هذه التناقضات الابتسام والضحك اللذان هما من أهم علامات السخرية.

(311) انظر ص 209.

(312) انظر ص 129، 131، 140، 198، 199.

(313) انظر ص 209.

والطريف - في حالة هذا الشيخ - أنه أدرك خطورة الوقوع في التناقض ، ولكنه كان عاجزا عن تلافيه والابتعاد عنه.

فقد رد على عدى بن زيد ⁽³¹⁴⁾ حين دعاه إلى القنص فقال له : " يجوز أن يقذفني السباح ⁽³¹⁵⁾ على صخور زمورد ، فيكسر لى عضدا أو ساقا ، فأصير ضحكة في أهل الجنان " ⁽³¹⁶⁾.

وهذا القول هو بداية الوقوع في التناقضات إذ سرعان ما نسي ابن القارح خطورة أن يصير " ضحكة في أهل الجنان " فيقبل على القنص بمجرد أن ذكره عدى بأنه في الجنة قائلا له : " ويحك ! أما علمت أن الجنة لا يرهب لديها السقم ولا تنزل بساكنها النقم ؟ " ⁽³¹⁷⁾. وهكذا يشرع باب السخرية من ابن القارح.

والمواقف الساخرة في الجنة متعددة نذكر منها خطوة ابن القارح بحوريتين : فقد تغزل بهما أيما غزل ، ثم أقبل يترشف رصاب كل واحدة منهما ، فلم يكذب فعل حتى " تستغرب إحداهما ضحكا " ⁽³¹⁸⁾. وهذا الضحك يستدعيه موقف شيخ وقور لا يكفي أنه يتصابى ، بل يضيف إلى ذلك جمعه لامرأتين في آن واحد دون وازع شرعى ولا حياء إنسانى !

⁽³¹⁴⁾ هو عدى بن زيد بن حماد العبّادى (ت 35 ق.م / 590) شارع تميمى من الدماء . كان يحسن الرمى بالشباب ، ويلعب بالصولجة على الخيل . له ديوان شعر . انظر عنه الزركلى : الأعلام 1/ 196 .

⁽³¹⁵⁾ المقصود هنا الفرس السريع من خيل الجنة.

⁽³¹⁶⁾ الغفران 197 .

⁽³¹⁷⁾ ن.م.ص.

⁽³¹⁸⁾ الغفران ص 286 .

وأبلغ من هذا الموقف سخرية ذلك الموقف الذى وجد فيه نفسه تحت سطوة حورية - ولكنها فى الحقيقة حية من حيات الجنّة - تغالظه وتصر على وصاله ، فلم يجد بدا إلا أن " يذهب مهرولا فى الجنّة ويقول فى نفسه : كيف يركن إلى حية شرفها السم ، ولها بالغتكة هم ؟ " وهى لا تفتر تناديه " هلم إن شئت اللذة ! " (319).

ولا يخلو الحشر من هذا الموقف للطريقة الساخرة سخرية مؤلمة . فقد وجد نفسه فى انتظار دوره حتى يحاسب مثل سائر الناس . ولكن أنانيته دفعته إلى البحث عن وسائل بها يدخل الجنّة بسرعة فيستريح من الفرق فى العرق (320)، جعله يقع فى سلسلة من المواقف / الأخطاء التى جرت عليه السخرية . من ذلك ادعاؤه للضعف فى قوله : " أنا ضعيف منين " (321)، وقوله " أنا رجل لا صبر لى على اللواب - أى العطش " (322)، ثم إتيانه بما لا يليق من ناحية يظهر القوة حين يقول " ضانكت الناس " (323) ومن ناحية يسئ الأدب عندما يقول : " دعوت بأعلى صوتى يا رضوان... " (324).

وكذلك عندما ضاع صك توبيته ، ولم يجد من يثبت له تلك التوبة عن إقامة النداء ولم يجد أحد ، قال " فأخذنى الهلع والقل - أى الرعدة -

(319) الغفران ص 371.

(320) قال ابن القارح : " فلما أقمت فى الموقف زهاء شهر أو شهرين ، وخفت فى العرق من الفرق ، زينت لى نفسى الكاذبة أن أنظم أبياتا فى رضوان . . . " ص 249.

(321) الغفران ص 251.

(322) الغفران ص 250.

(323) الغفران ص 249.

(324) الغفران ص 250.

ثم هتف الثانية ، فلم يجبه مجيب . فليح بي عند ذلك - أى صرعت إلى الأرض " (325).

ولا يترك المعرى بطله حتى يظهره فى أبغض المواقف سخرية، وأما مرا ، عندما تحمله جارية لتعبر به الصراط ، وهو يتساقط " عن يمين وشمال " (326)، أو عندما جعله يتعلق بركاب فرس إبراهيم (327)، أو عندما يجذبه إبراهيم جذبة يحصله بها فى الجنان (328). ولا تتضح السخرية إلا إذا استحضرنا قاعدة التناقض التى ذكرناها آنفا .

وأما الأداة الثانية التى استعملها أبو العلاء ليسخر من ابن القارح فهى الكلمة أو القول . ولئن كانت الحركة أبلغ فى إبراز المواقف الحرجة والحالات الفاضحة فإن الكلمة لا تقل قيمة بل لعلها أهم - فى بعض الأحوال- لأنها اعتراف من الداخل . وقد جعل أبو العلاء بطله مفوها . صاحب كلمة سارية، وأنطقه بما أراد، ولكنه أنطقه نطقين : نطقا صادقا وهو لسان أبى العلاء، وضمنه تدخل لذة السؤال ، ولذة الشعر (329)، ونطقا كاذبا وهو باب فتحه أبو العلاء ليورط بطله فى أقوال ظاهرها مودة ورحمة وإيمان وتصديق ، وهى فى الباطن مشحونة بالسخرية اللاذعة .

ونلاحظ أن أساس هذه الأقوال هو " التعجب " . والتعجب كما نعلم حالة ناشئة عن تناقض بين معرفة جاهزة / عادية ومعرفة حادثة / خارقة ،

(325) الغفران ص ص 256.

(326) الغفران ص 260.

(327) ن.م.ص.

(328) الغفران ص 262.

(329) راجع أعلاه ص :

فلم يفتأ ابن القارح يعلن تعجبه من قدرة الله في جميع الأحوال . ونسوق نماذج من هذا التعجب :

فمن ذلك قوله عندما حضر الرواة من مكان قصى في الجنة في لمح البصر : " لا إله إلا الله مكونا مدونا ، وسبحان الله باعثا وارثا ، وتبارك الله قادرا لا غادرا !⁽³³⁰⁾. ومن ذلك تعجبه عندما تنتفض إوزات الجنة للرقص والغناء . وقد بهره صوت إحداهن عندئذ " هلل وكبر وأطبال . حمد ربه واعتبر وقال : ويحك ألم تكوني الساعة إوزة طائرة ، والله خلقك مهدية لا حائرة " ⁽³³¹⁾. ومن ذلك أيضا تعجبه عندما علم أن إحدى الحوريتين اللتين كان يغازلهما إنما هي "سوداء"، فيقول : لا إله إلا الله ، لقد كنت سوداء ، فصرت أنصع من الكافور ! ⁽³³²⁾. وتجيبه تلك الحورية بداهة . وجوابها يكشف عن سخرية مرة " فنقول: " أتعجب من هذا ، والشاعر يقول لبعض المخلوقين :

لو أن نوره مثقال خردلة .: في السود كلهم لأبيضت السود⁽³³³⁾

⁽³³⁰⁾الغفران ص 206.

⁽³³¹⁾الغفران ص 212.

⁽³³²⁾الغفران ص 287.

⁽³³³⁾ن.م.ص.

الخاتمة

لقد حاولنا في هذه الدراسة أن نتبين أهمية اللذة والألم في رسالة الغفران وسعينا إلى توضيح موقف أبي العلاء منهما. والحقيقة أن هذين الحسين إنما هما - في أدبه وحياته - فلسفة وسلوك خضع لهما خضوعا تاما. ولئن كانت لذات الدنيا أثيرة عند ابن القارح وعامة للناس فهي غير جديرة باهتمام أبي العلاء.

وأما " خيار اللذات " عنده فهي الأتس بالأدباء والاستمتاع بلذة التحدث إليهم ومطارحتهم ومحاورتهم ، وهي لذة لا تعدها - عند أهل الفكر - لذة . وقد كان يروم تحقيق ذلك في واقع الحياة وفي صلب المجتمع ، ولكن الدنيا خذلته ، وخذله الناس لأنه كان مخالفا للعصر ، غير مستكين لأهواء أهله ، رافضا لسلوك أديبائه . فلم يقع بينه وبينهم ألفة في التفكير ومودة في الشعور حتى احتاج إلى أن يصطنع لنفسه عالما خاصا في محبسه ، وفي رسالة الغفران ، وفي غيرها من تصانيفه ، واضطر إلى اصطفاء نخبة من المهووسين بالكلمة الصادقة ، الباحثين عن سحر الحقيقة ، فأحيا الأموات وسكن إليهم وحقق في حضرتهم لذة لا توصف .

لقد كان ابن القارح مشبوب الشهوة لأنواع اللذات الحسية ، مضطرم الحس المادى ، شبقا . وكان أبو العلاء يتعالى على بدنه وحواسه ، يأبى الاتحداً إلى حمأة المادة الفانية ، فاستقر في عالمه " العلوى " يتمتع بلذة لا تغنى ، هي لذة الأدب . لأن ما سوى ذلك هو الألم السرمد .